برامج تدبُّر القرآن
للأسرة ومعلمي الأطفال والناشئة
(نماذج وتطبيقات)

دكتور

حسان عبد الله حسان

الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

٩٤ شارع عباس العقاد – مدينة نصر – القاهرة

ت: ٢٢٧٥٢٧٩٤ – فاكس: ٢٢٧٥٢٧٣٥

٦ أ شارع جواد حسني – ت: ٢٣٩٣٠١٦٧

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

٢٢٧	حسان، حسان عبد الله.
ح س ب ر	برامج تدبر القرآن للأسرة ومعلمي الأطفال والناشئة: نماذج وتطبيقات/ حسان عبد الله حسان. ـ القاهرة: دار الفكر العربى، ١٤٤٢هـ= ٢٠٢١م.
	١٥٢ ص؛ ٢٤ سم.
	يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية وحواشي
	تدمك: ٧ – ٣٥٧٨ – ١٠ – ٩٧٧ – ٩٧٨.
	١ – القرآن الكريم – تفسير. ٢ – الوعظ والإرشاد.
	أ ـ العنوان.

تنفيذ وطباعة الكتاب



رقم الإيداع	٢٠٢١ / ٥٠٣٥
I. S. B. N الترقيم الدولى	978 - 977 - 10 -3578 - 7


بسم الله الرحمن الرحيم



المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

برامج تدبر القرآن

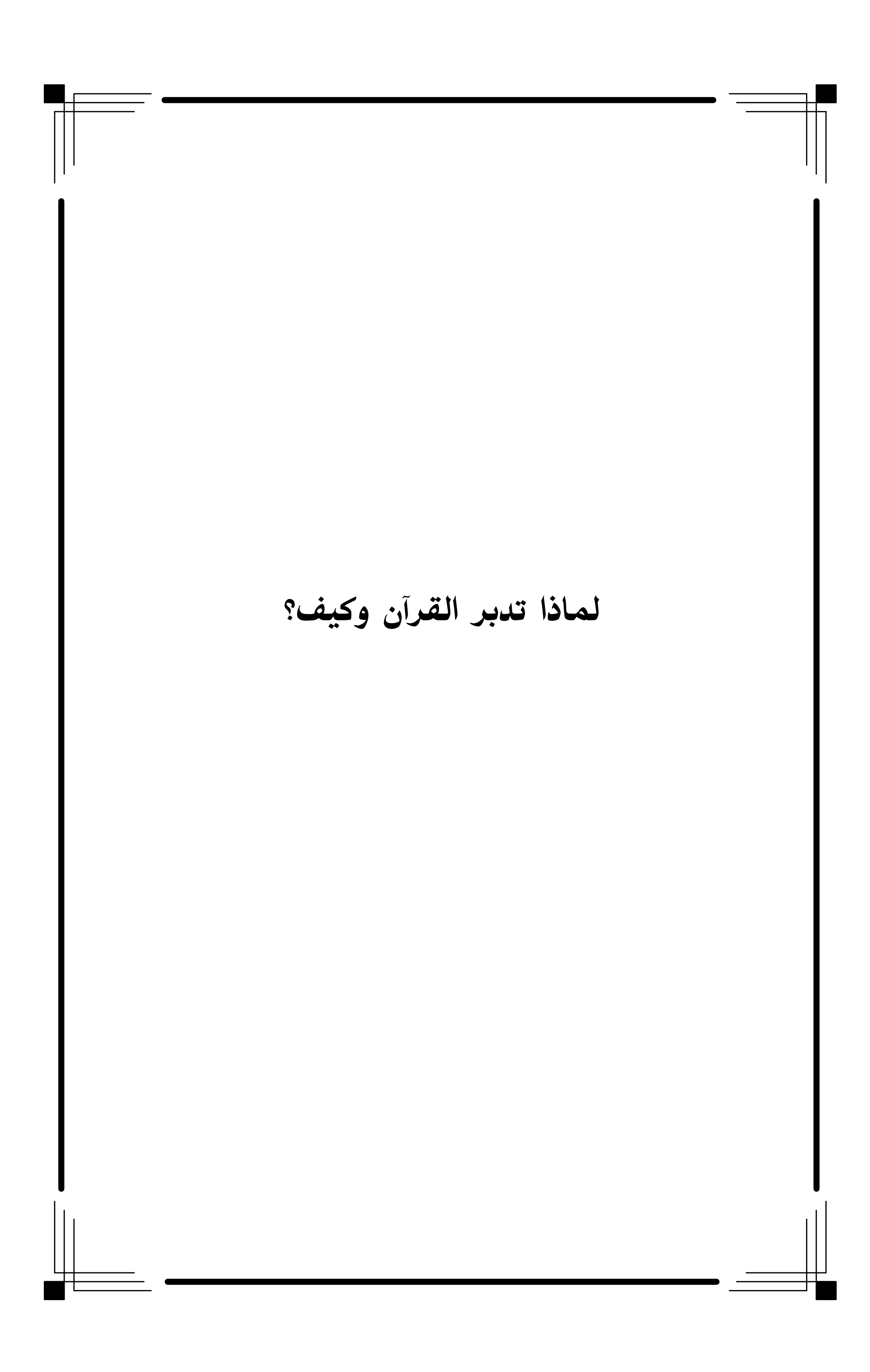
برنامج (١) تدبر أسماء السور القرآنية للناشئة

برنامج (٢) الكليات الأربع لتدبر القرآن

برنامج (٣) طريقة الشجرة القرآنية

تدبر القرآن

وبعض قضايانا المعاصرة



لماذا تدبر القرآن وكيف؟



لماذا تدبر القرآن وكيف؟

المتأمل في حالة الأمة وفي أسباب «الأفول» و«الأزمة» الحضارية التي تعيشها، يلاحظ تَوافُر كثيرٍ من العناصر المادية -الثروات الطبيعية، والبشر المنفِّذين لفعل النهضة- التي تؤهِّل لنهوض الأمم وإخراجها من كَبوتِها، إلا أن النظرة الاستقرائية لحال الأمة الإسلامية تقف عند غياب عاملٍ آخَرَ كان هو المحرِّك لهذه الأمة، وهو الذي صنَع لها تاريخًا وهويةً وحضارةً، بل وصنَع لها وجودًا، هذا العامل هو عامل الإيمان الذي أَوشكَ علىٰ الانطفاء في حياة الأمة، فرغم المظاهر الشكلية الإيمانية المتعددة إلا أن الإيمان لا يقاس بمظاهره، ولكن يقاس بفعاليته الواقعية، فماذا يفيد إيمانٌ كامنٌ ذاتيٌّ داخل الفرد ليس له تأثيرٌ في واقع اجتماعي أو تربوي أو اقتصادي أو سياسي أو أخلاقي. ونحن في البدء لا ننفي عن المسلم المعاصر إيمانه، ولكن ننفي فعالية ذلك الإيمان، ونحفِّزه إلىٰ استعادة جذوة ذلك الإيمان مرةً أخرىٰ في دورة حضارية جديدة أو عالمية ثانية للأمة، لن يتحقق مرادها إلا باستعادة تلك الجذوة الإيمانية.

إن غياب فعالية الإيمان في واقع المسلم -فردًا وأمة- بدأ بوَهنِ الدفعة القرآنية في أعماق الشخصية المسلمة وتكوينها النفسي والفكري والاجتماعي، فالقرآن هو الذي غَرس في وجدان المسلم جذوةً امتدَّت ظلالُ نورها قرونًا طويلةً، والأفكارُ والقِيم والمفاهيم الإيمانية التي تَضمَّنَها الوحيُ هي التي مثَّلَت عند المسلم في دورته الحضارية الأولىٰ منبعَ التحضُّر، ويقاس بالقُرب منها أو البُعد عنها حالةُ المسلم وتحضُّره. وعندما انطفأَت شعلة هذه «الجذوة القرآنية» وخَمِدت أصيبت الأمة بهذا «الوهن الحضاري»، وتوقفَت حركة العالم

الإسلامي وضَلَّ وجهَتَه، ولم تفلح معه كل المعوضات الزمنية، ولا الطاقات الوضعية؛ لأنه لا يمكن لأيِّ معوِّضٍ زمنيٍّ أن يَحل محلَّ الإيمان.

القرآن والأمة واللحظة الراهنة:

لا يمكن النظر إلىٰ اللحظة الراهنة التي تحياها الأمة ويحياها الإنسان المسلم دون تمركُزِ القرآن في تلك النظرة، وهذا يتحقق بمنهجيةٍ تربويةٍ تقوم علىٰ أمرين: الأمر الأول: التخلي عن أوجُهِ القصور الحالي في تَعامُلِنا معه، وأقصد تحديدًا: تَجاوُز التعامل التجاري مع القرآن، أي ذلك التعامل الذي يرىٰ في القرآن مخزنًا للحسنات علينا أن ننهل منها بصرف النظر عن غايات القرآن من القراءة التي أُمر المسلمُ بها. وما يتعلق بهذا الأمر من موسمية القراءة وموسمية اختيار السُّوَر وموسمية الاهتمام والعناية.

الأمر الثاني: هو الانتباه إلىٰ القدرات التفسيرية التي يمتلكها القرآن في نظرَتِه للأحداث وتفسيره للحوادث، وهذا لا يعني امتثال القدرية في التفكير، وإنما يعني البحث عن الدور الملائم والمكان المناسب للمسلم في تلك الأحداث، والفعل الواجب علىٰ المسلم القيام به، وهو ما يتطلب سابقًا -أي ما يسبق كل ذلك- أن يفهم المسلمُ جيدًا مكانه في الكون ومكانته، وخصائص تلك المكانة التي تنطلق من قُدرتِه علىٰ تغيير التاريخ والأحداث ومسؤوليته عن الهداية. إن هذا الأمر كله يستدعي إعادة التأمل في علاقتنا بالقرآن وضرورة تصويب تلك العلاقة، وأن يبدأ ذلك التصويب والتصحيح ببداية حركة الإنسان وبداية وَعيِه، وهي مرحلة الطفولة.

كما صاحَبَ التدهورَ الحضاريَّ الذي دخَلَت فيه الأمة -منذ ما يزيد عن القرنين من الزمان- تدهورٌ في علاقاتها بالقرآن وشكلِ هذه العلاقة وطبيعتِها، وكان الأخير عاملًا من عوامل التدهور الحضاري الذي شهِدَته الأمةُ، فرغم الحوادث التاريخية العديدة التي تعرَّضَت لها الأمة داخليًّا وخارجيًّا منذ نشأة دولة المدينة، إلا أن حالة الأمة مع القرآن ظلت حافظةً لقوام الأمة من

التدهور والتراجع، وظلت -أيضًا- عاملًا دافعًا لأداءِ الأمةِ رسالتَها في البلاغ الحضاري للعالمين. لقد مثَّلَ القرآنُ قوةً دافعةً للأمة، ومحفزًا لطاقتها الحيوية الفردية والجماعية، ومنبعًا لحركة التحضر الواسعة التي شهِدَتها الإنسانية. وقد كان لِتوقُّف هذه القوة الدافعة عن العمل في نفس الإنسان المسلم دورٌ رئيسٌ في توقُّف نشاطه وعطائه الحضاري، وعند ذلك انطفأَت شعلة هذه «الجذوة القرآنية» وخمِدَت وأصيبَت الأمة بهذا «الوهن الحضاري»، "حتىٰ إذا وَهنَت الدفعة القرآنية تَوقَّف العالم الإسلامي، كما يتوقف المحرك عندما يَستنزف آخِر قطرةٍ من الوقود. وما كان لأيِّ معوِّضٍ زمنيٍّ أن يقوم خلال التاريخ مقام المنبع الوحيد للطاقة الإنسانية، ألا وهو الإيمان"[١].

من شواهد تدَهوُر علاقة الأمة بالقرآنِ، العجزُ عن فَهمِه والاكتفاءُ بالحفظ والاستظهار، وهو البديل النفسي التعويضي الذي اختَرعَته الأمةُ نتيجةَ اضطراب علاقتها بالقرآن وتشوُّهِها، كذلك الاكتفاء بالشروح الكثيفة الموروثة، والتركيز علىٰ مسائل الكلام والإعراب والبيان، دون الالتفات إلىٰ المقاصد القرآنية، وعدم الاعتبار للتأمل في فَهمِ النفس والمجتمع وما آلت إليه الأمة من واقع المشهد القرآني، كذلك أيضًا تم التعامل مع القرآن بطريقةٍ حَرفيةٍ لفظيةٍ تقوم علىٰ اعتبار أنه وسيلةٌ للوعظ السلبي والترهيب وطاعة الحكام، لا علىٰ أنه طريقٌ لهداية الناس والعمران وبَعثِ المسؤولية الحضارية للمسلم. فالمجتمع الإسلامي يتكلم تبعًا لمبادئ القرآن، ولا يعيش طِبقًا لمبادئ القرآن؛ وذلك لعدم وجود المنطق العملي في سلوكه الإسلامي.. إن الذي ينقص المسلم ليس منطق الفكرة، ولكن منطق العمل والحركة»[٢]. ومِن ثَم تَغيَّب دَور القرآن في فهمِ الواقع الإسلامي الجديد المتخلف عن العصر، وبالضرورة

(١) مالك بن نبي. **وجهة العالم الإسلامي**، ص٣١.

(٢) مالك بن نبي. **شروط النهضة**، ص٩٦.

عن أداء الرسالة والوظيفة المناطة به في تصويب هذا الواقع وتهيئته للهداية والعمران.

الطفولة مرتكز استعادة القرآن:

إن تَعامُل الأمة المقلوب مع القرآن وانتقالها من التدبر إلىٰ الاستظهار، ومن منطق العمل إلىٰ منطق الكلام، ومن المقاصد إلىٰ التجزؤ والتفتت - لا يمكن إعادة بناء ذلك التعامل وتصويبه إلا من خلال البداية المنطقية والنفسية للإنسان المسلم، أي عبْر بناءٍ تربويٍّ يبدأ من نقطة وعي الإنسان المسلم الأولىٰ، ومن تكوينه الوجداني والنفسي والعقلي. إن فكرة البيوتات القرآنية تَظل هي الحل الذي علىٰ الأمة مأسسته اجتماعيًّا، والانتباه إليه وإلىٰ ضرورته الوجودية والحضارية، وتهدف هذه الفكرة «**البيوتات القرآنية**» إلىٰ:

١- استعادة القرآن علىٰ مائدة الأسرة المسلمة، ونقصد بالمائدة هنا: المائدة التربوية والثقافية والنفسية، فيكون القرآن محورًا لاهتمام الأسرة بالتعليم والدرس والنقاش والمداولة، بما يمنحه -أي القرآن- مكانةً وقيمةً في نفوس النشء المسلم، فالبيئة التي تحيط بالطفل ليست مجرد أشياء تتحرك، ولكنها رموزٌ يتشكل بها وجدان النشء.

٢- كما تُعَد اللغة عاملًا رئيسًا في البناء الوجداني والثقافي للطفل، واللغة القرآنية وسيلة مهمة في هذا السبيل، لا سيما في عصر الاختلاط الثقافي ومحو الخصوصيات الثقافية والحضارية. وارتباط الطفل بلغة القرآن يمنحه أُفُقًا أكثر اتساعًا للحياة القرآنية بداخله، كما أن اللغة تؤدي دورًا رئيسًا في بناء المفاهيم وعالم أفكار الطفل كليةً.

٣- بناء ثقافة أسرية حول فلسفة الحياة في القرآن، ومكانة الإنسان فيها ومسؤولياته الاجتماعية والإنسانية، وغاية هذه الحياة، ونشأتها، ومصيرها.

٤- بناء ذاكرة تاريخية من القصص القرآني لمسار النبوة، ويمد القصصُ القرآني شخصيةَ الطفل في هذه المرحلة بمجموعةٍ من الأفكار المركزية في بنائها، مثل فكرة تَدافُع «الخير والشر»، وارتباط الغيب بالشهود، والسماء بالأرض.

٥- تربية الضمير القرآني عند الطفل، ومِن ثَم يتكون لدىٰ الطفل ميزان الحكم وميزان العدالة مع النفس والمجتمع، وفقًا لميزان العدالة القرآنية.

من وسائل بناء الدفعة القرآنية في الطفولة:

في ظل العمل علىٰ بناء الدفعة القرآنية ومعالجة الوهن في وجدان الشخصية العربية والإسلامية وعقلها، فإنه لا بد وأن نعطي مساحةً أكبر للقرآن في واقع الطفولة، من أجل تحقيق الارتباط الوجداني الذي يشب عليه الطفل، فتتحقق به ثمار نواة الإنسان المستخلَف والإنسان الرسالي، ومما يساعد في ذلك:

١- يجب أن يَحمل الطفلُ القرآنَ في حقيبته المدرسية بصورةٍ يوميةٍ، ويكون له مكانه الثابت في تلك الحقيبة (بالطبع بعد أن يَعلم قَداستَه وضرورته العقدية بصورةٍ تلائم عُمره ومرحلة نموِّه).

٢- ينبغي أن يتحول القرآن إلىٰ واقعٍ غنيٍّ للطفل يجد فيه: الأشجار والألوان والأصوات وكل عناصر الجمال.

٣- يجب أن نحاول جاهدين صرْف الطفل عن برامج التلفزيون والإنترنت والهواتف وما إلىٰ ذلك.. وأن نستبدل هذا الوقت بالممارسة التطبيقية لكتابة بعض آيات القرآن القصيرة (عن طريق الورقة والقلم)، وأن نجعلها نشاطَه الدائم بالرسم والتلوين لمَشاهد تلك الآيات، وإطلاق الخيال للطفل الذي هو أَخصَبُ ما يكون في هذه المرحلة.

٤- يجب إشباع حاجة الطفل إلىٰ سماع الحكايات والقصص من قصص القرآن، ويكون لها أوقاتها المميَّزة -مثل قبل النوم-، وتكون شِبهَ عادةٍ يومية ولو دقائق معدودة. .

ينبغي أن تمتد ظلال القرآن الكريم إلىٰ كافة مناشط الطفل، لتحتويه منزليًّا، ومما يمكن أن يفيد في ذلك تعليم أسماء السور، التي يمكن أن تُكتَب علىٰ جزءٍ من لوحةٍ ورقيةٍ، ثم يُرسَم علىٰ تلك اللوحة أهمُّ محورٍ للسورة بداخلها، ويعلَّق في حجرة الطفل أو يكون له مكانه الخاص معلَّقًا أو غير معلَّقٍ، ويتم تفهيم الطفل -بقدر نموِّه العقلي- هذا المحور الذي تُبنَىٰ عليه السورة، وكيف يمكن أن يستفيد به في حياته ونشاطه.

سبيل استعادة مركزية القرآن في الأمة:

إن استعادة مركزية القرآن في الأمة وفي نُظمها وأخلاقها، لن تتحقق قبل أن يستقيم تَعامُل المسلم مع القرآن الذي هو الوقود الإلهي، والذي لا يمكن لأي معوِّضٍ زمنيٍّ أن يعوضه، ومن هنا كانت الدعوات الإصلاحية وأفكارها تتمحور حول التعامل مع القرآن واستعادة مركزيته في بناء شخصية الإنسان المسلم. . حتىٰ يستعيد الهدىٰ الإلهيَّ والنور المفقودَ. . . وهو ما يجب أن تتمركز حوله الجهود التربوية؛ من أجل استعادة المركزية القرآنية في بناء الشخصية المسلمة كمكوِّنٍ رئيسٍ ومركزيٍّ في بنائها التربوي والقِيَمي. . وتاريخ الإصلاح المعاصر الإسلامي بدأ بذلك، ولكن جاءت فجوة الدولة القطرية وأَفسدَت ذلك بتقسيم التعليم إلىٰ مدنيٍّ ودينيٍّ في إهمالٍ تامٍّ لمكانة القرآن ودوره في البناء الحضاري الإسلامي. والحل الذي ندعو له الآن هو استعادة هذا المسار مرةً أخرىٰ -أي مسار تجديد منهجية التعامل مع القرآن- واستئناف نشاطه في برامج التعليم الموازي في الأمة.

خلاصة القول هنا: أنه لا نجاة لهذه الأمة -في هذه الموجات من الهزائم المادية والنفسية- إلا بالتعليم المنزلي (البيوتات القرآنية)، وذلك من

أجل بناء نشءٍ يتجاوز عوامل الإحباط أو الانحطاط الذي وقعَت فيه أجيالٌ حاليةٌ.. والبدء دائمًا بما بدأَت به هذه الأمة في البناء (لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) وهو القرآن الكريم، هو الدفعة التي لا يمكن لأي معوِّضٍ آخَرَ أن يَحل محلَّها.

نحاول في هذه المائدة القرآنية أن نعيد اهتمام الأسرة المسلمة بالقرآن الكريم، ليس علىٰ مستوىٰ الشكل فقط، ولكن علىٰ مستوىٰ الفهم والوعي والسلوك، وهو ما وصفَه القرآن بلفظةٍ جامعةٍ وشاملةٍ ومعمَّقةٍ «التدبُّر». نقدم شكل العناية المطلوب من الأسرة -باعتبارها اللبنة الأولىٰ في المجتمع الإسلامي والأمة- كما نقدم بعض المنهجيات علىٰ مستوىٰ الطفولة والناشئة والراشدين. ونسأل الله القبول والسداد والهداية.



حق القرآن العظيم

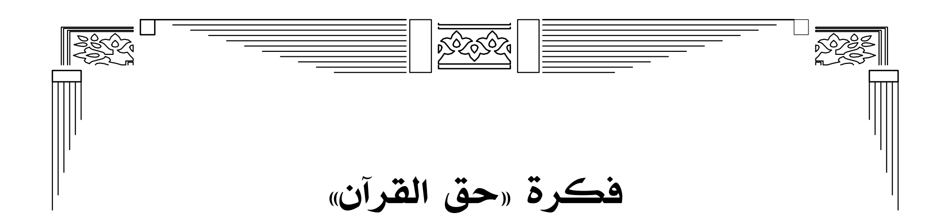


حق القرآن العظيم

من مسؤوليات المسلم المعاصر استعادة دَور القرآن ومكانته في الحياة العامة للمجتمع الإسلامي، ومواجهة حالات الهجر المتعددة التي يعاني منها القرآن بين أهله، وهذه المسؤولية يتحقق القيام بها عن طريقين: الأول: الترويج لهذه الفكرة ذاتها، أي فكرة تمكين القرآن في الحياة العامة للمسلمين المعاصرين، والطريق الثاني: -وهو مرتبطٌ بالأول ودعامةٌ له أيضًا- ويتمثل في غرسِ قيمة «حق القرآن» في المنحَىٰ التربوي الإسلامي بوسائطه ومؤسساته المختلفة: الأسرة، المدرسة، الإعلام، الجامعات.

نحاول هنا أن نُعَرِّفَ ببعض جوانب فكرة «**حق القرآن**»، مبيِّنين أبعادها وأصالتها من القرآن والسنة النبوية، وعامِلِين علىٰ توجيه نظر المسلمين إلىٰ هذا الحق وضرورته، والتي تبدو في ناحيتين: الأولىٰ: تجنُّب الوقوع تحت طائلة شكوىٰ النبي ﷺ لله ﷻ من «هجْر القرآن»: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الفُرْقَانِ: ٣٠]، فالهجر هو الابتعاد والنأي. والثانية: استعادة القرآن منظِّمًا لحياة المسلم وموظِّفًا لطاقته الحيوية بتجديد الموقف من القرآن في الواقع الاجتماعي.





فكرة «حق القرآن»

هل للقرآن حق؟

للقرآن حقٌّ مثل حق الرسول، وحق الصلاة، وحق الصوم، فهذه وغيرها حقوقٌ ثابتةٌ غير قابلةٍ للتبديل أو التغيير، وكذلك الحق الذي نشير إليه هنا وصاحبه «القرآن العظيم»، ومحل هذا الحق هو سلوك المسلم المؤدَّىٰ نحو القرآن -والذي سوف نفصِّله لاحقًا- ويقوم هذا الحق علىٰ عدة منطلقاتٍ رئيسةٍ، أهمها:

١- **منطلق اعتقادي**: فالإيمان بالقرآن، واجب علىٰ المسلم لا يتحقق إيمان المسلم إلا به، «والإيمان بالقرآن يعني الإيمان بكل ما جاء فيه من عقائد ومفاهيم وعبادات وشعائر، وأخلاق وآداب وتشريعات ومعاملات»[(١)]. وهذا الإيمان يتطلب القيام بواجباتٍ ومسؤولياتٍ تجاه المُعتقَد فيه، وهذه الواجبات هي التي أسميناها هنا (حق القرآن).

٢- **منطلق فكري**: وفي ضوء الإيمان/الاعتقاد السابق، فإن القرآن يمثل مرجعيةً فكريةً بالنسبة للمسلم، يَستمد منه قِيَمه الأساسية وتصوراته ومفاهيمه حول الخالق، والكون، والمصير، والخَلق، ولا يمكن تجاوُز هذه المرجعية في مجالات تفكير المسلم في القضايا الأساسية والكبرىٰ؛ حيث إن تجاوُزها يمثل انحرافًا فكريًّا وتشوُّهًا في الرؤية الكلية التي يعتمد عليها سلوك المسلم ونشاطه في الكون.

٣- **منطلق اجتماعي**: فالتركيب الذي يُحدثه (القرآن) مع الطاقة الحيوية في تنشئة الفرد المسلم، يَنتج عنه بالضرورة ما يُعرف بـ (المجتمع الإسلامي)

---

(١) يوسف القرضاوي، **كيف نتعامل مع القرآن العظيم**، ص٤٤٢.

الذي لا يمكنه أن يوصَف بهذه الصفة (الإسلامية) دون انطباع التربية الاجتماعية لأفراده بالطابع القرآني، كما حدث في التجربة التاريخية الأولىٰ للأمة الإسلامية.

٤- **منطلق تاريخي حضاري**: مَثَّل القرآن في بُعد حركته التاريخية دافعًا لحركة الحضارة الإسلامية، بما طرَحَه من مجالاتٍ بنائيةٍ علميةٍ وأخلاقيةٍ دفعَت الإنسان المسلم لتشييد الحضارة في ثوبها الإنساني الجديد، ذي الصبغة القرآنية ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ﴾ [البَقَرَة: ١٣٨]، وابتكار المناهج العلمية ومجالات العلوم الطبيعية والرياضية والإنسانية.

٥- **منطلق تشريعي**: القرآن مصدر التشريع الأول للمجتمع الإسلامي فردًا وجماعةً ومجتمعًا وأمةً، وتَستمد منه باقي مصادر الشريعة مبادئها ومقاصدها، ويسمىٰ «القرآن» المصدر الرئيس للشريعة، وباقي المصادر تسمىٰ «المصادر الفرعية».

٦- **منطلق ثقافي**: يشكِّل القرآن هوية المسلم الثقافية، ويحد ثقافته الإسلامية بحدوده وخصائصه الفريدة في مقابل الهويات، التي تصنعها الثقافات الوضعية الأخرىٰ، فالقرآن هو المصدر العُلوي الذي يمد الشخصية المسلمة ببُعدها الغيبي المتمايز عن المنابع الوضعية للإنسان المعاصر، كما أنه يقدم إرشاداته وتوجيهاته الدنيوية من منظورٍ متباينٍ بما يحقق مقاصد العمران الرئيسة للإنسان والكون بصفةٍ عامةٍ.





حقوق القرآن

يمكن أن نعدِّد حقوقًا للقرآن هي واجبات المسلم نحوه، ونعرض هنا لأهم هذه الحقوق بالشرح وبعض التفصيل كما يلي:

(١)

حق التلاوة، القراءة

أولىٰ هذه الحقوق هو حق التلاوة أو القراءة، وفي البدء نشير إلىٰ أن قراءة القرآن تختلف عن قراءة غيره من النصوص المكتوبة وإن كانت بنفس لغته وحروفه، حيث تُشترط -لهذه القراءةِ- شروطٌ وقواعدُ في القراءة لا تُشترَط لغيرها، أشار إليها القرآن ذاته فيما أسماه بـ﴿حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البَقَرَة: ١٢١].

والتلاوة: اتساق الشيء، وانتظامه علىٰ استقامةٍ، والترتيل: إرسال الكلمة من الفم بسهولةٍ واستقامةٍ. قال تعالىٰ: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المُزَّمِّل: ٤]، ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفُرْقَان: ٣٢]، أي جوَّدنا تلاوته.

أما القراءة: ضمُّ الحروف والكلمات بعضها إلىٰ بعضٍ في الترتيل، وليس يقال ذلك لكل جمعٍ. لا يقال: قرأتُ القوم إذا جمعتهم، ويدل علىٰ ذلك أنه لا يقال للحرف الواحد -وإذا تُفُوِّهَ به-: قراءةٌ، والقرآن في الأصل مصدره، نحو: كفرانٍ، ورُجحانٍ. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القِيَامَة: ١٧-١٨]. وقال بعض العلماء: تسمية هذا الكتاب قرآنًا من بين كُتب الله لكونه جامعًا لثمرة كُتبه، بل لثمرة جميع العلوم[١]. كما أشار تعالىٰ إليه بقوله: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يُوسُف: ١١١]، ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ

(١) انظر: الراغب الأصفهاني: **معجم ألفاظ القرآن**، مادة قرأ.

شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الروم: ٥٨]، ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي قِــــرَاءَتَــــهُ، ﴿لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٧]، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [الأعلى: ٦]. وتَقَرَّأْتُ: تَفَهَّمْتُ، وقَارَأْتُهُ: دارَستُهُ.

وهكذا فإن التلاوة والقراءة تتضمنان معرفة قواعد التناسب، وحقوق الحرف، وشكل استقامته، ومعيار تلك الاستقامة التي يجب أن يكون عليها اللسان حال النطق القرآني، وما يجب فيها وما لا يجب، إن حق القراءة للقرآن لا يشبهه -كما تَقدَّم- أيُّ حقٍّ لأية قراءةٍ أخرىٰ، فهذه القراءة لها متطلباتها من حيث:

- العلم بالمقروء (قداسته، مكانته، كيفية نزوله، كيفية نطقه، ...).
- الوعي بمضامينه البنائية ومكوناته الفكرية والأخلاقية والاجتماعية.
- إدراك مقاصده وغاياته في الشهود والحركة.
- تحقيق الاستقامة في اللسان حتىٰ تتحقق في الذهن والتصور والوجدان.

وقد رسَم القرآن خارطةً لتلاوة النبي للقرآن علىٰ المؤمنين وعلىٰ غيرهم بصورة واضحة جلية، تأخذ أحيانًا وصف القراءة البطيئة ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، وأحيانًا وصف الترتيل ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، وأحيانًا وصف التلاوة ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وأحيانًا تكون القراءة تبيانًا وتبيينًا ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، أو بلاغًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

والمقصود من هذا كله أن يكون أداء القرآن في غاية الدقة والوضوح، وقد أُثر عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قرأ القرآن بيَّن الحروف، ومدَّ الحركات، فإذا قرأ (بسم الله الرحمن الرحيم) كان يمد (الله) ويمد (الرحمن)

ويمد (الرحيم)... كانت قراءته مفسَّرةً. وعلىٰ هذا فإن الأحكام الناشئة عن الحرص في قراءة القرآن تحقِّق أمرين في أدائها(١):

الأول: دقة الأداء الفصيح، علىٰ نحو ما تنطق العربُ اللغةَ الفصحىٰ.

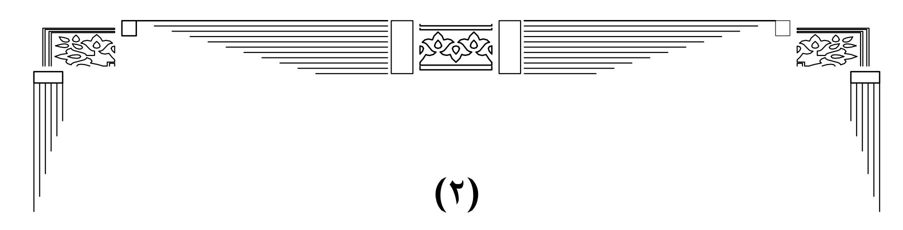
الثاني: المحافظة علىٰ بيان كل صوتٍ، بحيث لا يختفي أيٌّ من الأصوات في حال الوقف، حرصًا علىٰ تمام المعني القرآني كما تم تبليغه.

وقد أدىٰ تباعُد المسلمين عن زمن نزول القرآن، وما أصاب لسانهم من اللحن -في اللغة عامةً، والقرآن خاصةً- إلىٰ انتباه فريقٍ من علماء القرآن الذين وضعوا أصول علم قراءة القرآن لِتجنّب اللحن فيه، وعُرف هذا العلم بـ«علم التجويد»، وعرَّفوا التجويد -موضوع هذا العلم- بأنه: "إعطاء الحروف حقَّها ومستحَقها، وردُّ الحرف إلىٰ مَخرجه وأصله، وتلطيف النطق به علىٰ كمال هيئته، من غير إسراف ولا تعسُّف ولا إفراط ولا تكلُّف".

وعلىٰ ذلك فيُعَد تعلُّم «علم التجويد» ضرورةً لقراءة القرآن لا يكتمل حق قراءة القرآن إلا بها، وقد عد العلماء "القراءة بغير تجويدٍ لحنًا. واللحن هو كل خللٍ يطرأ علىٰ الألفاظ"(٢).



(١) عبد الصبور شاهين: **تاريخ القرآن**، القاهرة، دار المعالم الثقافية، ص٣٩-٤٠.
(٢) مناع القطان: مباحث في علوم القرآن، ص١٩٠.



(٢)

حق المدارسة، التعلُّم

هذا الحق (**حق المدارسة، التعلُّم**) ثابتٌ، بالغاية من القرآن ذاته بأنه كتاب هدايةٍ ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] فكيف يتحقق الهدىٰ من القرآن دون دَرسِه؛ أي تعلُّم ما فيه من مقومات تلك الهداية بجانبيها العقلي والقلبي. وقد أثبت القرآن هذا الحق بشكلٍ مفصَّلٍ لا لبْسَ فيه، قال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩]. وذكر القرطبي في تفسير هذه الآية أن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ ذَكَرٍ وَلَا أُنْثَىٰ حُرٍّ وَلَا مَمْلُوكٍ إِلَّا وَلِلَّهِ ﷻ عَلَيْهِ حَقٌّ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنَ القُرْآنِ وَيَتَفَقَّهَ فِي دِينِهِ**» ثم تلا هذه الآية[١].

وقوله تعالىٰ: ﴿تَدْرُسُونَ﴾ من التدريس. وقرأ ابن عامر وأهل الكوفة ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بالتشديد من التعليم، واختارها أبو عبيدة لأنها تَجمع بين المعنيين (التعليم والتعلم)[٢].

قال ﷺ: «**عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الجُهَنِيِّ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ فِي الصُّفَّةِ، فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَغْدُوَ إِلَىٰ بُطْحَانَ أَو العَقِيقِ، فَيَأْخُذَ نَاقَتَيْنِ كَوْمَاوَيْنِ[٣] زَهْرَاوَيْنِ[٤] بِغَيْرِ إِثْمٍ بِاللهِ وَلَا قَطْعِ رَحِمٍ؟**»، قَالُوا: كُلُّنَا

---

(١) أورده القرطبي في تفسيره بصيغة التمريض هكذا دون أن يعزوه إلىٰ أي من كتب السنة، وبالبحث لم أقف عليه في شيء منها.

(٢) القرطبي، تفسير آية رقم ٧٩ من سورة آل عمران.

(٣) أي نَاقَتَيْنِ عَظِيمَتَيِ السَّنَامِ.

(٤) أَيْ سَمِينَتَيْنِ.

يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَلَأَنْ يَغْدُوَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ إِلَىٰ المَسْجِدِ، فَيَتَعَلَّمَ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ نَاقَتَيْنِ، وَإِنْ ثَلَاثٌ فَثَلَاثٌ، مِثْلُ أَعْدَادِهِنَّ مِنَ الإِبِلِ**»[١].

المدارسة -أيضًا- من الدرس والتعلم والتفقه والتدبر التي تحقِّق غاية القراءة للقرآن ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَـٰتِهِۦ﴾ [سُورَةُ صٓ: **٢٩**]، والتدبير لا يتحقق بالقراءة العابرة للنص القرآني، وإنما يتحقق عبر الوقوف علىٰ الدلالات والغايات والمقاصد التي تتضمنها السور والآيات، ولا يتحقق كذلك عبْر منهجيةٍ جزئيةٍ تجزئ القرآن، وإنما عبْر رؤيةٍ كليةٍ -تأتي عبْر الدرس والمدارسة- تدرك:

- غايات القرآن.
- موضوعات -مضامين- القرآن الرئيسة والكلية.
- أحكام القرآن وتشريعاته وأخلاقه وعقائده.
- موقف القرآن من المشكلات الإنسانية والحلول التي يقدمها.
- توجيهات بناء الحياة الإنسانية ونُظُمها المختلفة الاقتصادية والاجتماعية، والسياسية، والثقافية والتربوية.
- السنن وحركة التاريخ.
- أحوال النفس وعلاج انحرافها... وهكذا.

يمكن -أيضًا- أن تُستخدَم في تلك المدارسات القرآنية الوسائلُ الحديثة والمعاصرة في التعلم، وكذلك نظريات علم النفس التي تدرِّج النمو المعرفي والعقلي والفروق الفردية كعناصر رئيسة في عملية التعلم للفرد، ويمكن أن يتلاقىٰ ذلك مع فكرة «نزول القرآن منجَّمًا»؛ من أجل تحقيق التدرج في تربية الأمة، وتحقيق مقاصد القرآن فيها.

---

(١) أخرجه مسلم، باب: فضل قراءة القرآن في الصلاة وتَعلُّمِه (٨٠٣)، وأبو داود، باب: في ثواب قراءة القرآن (١٤٥٦) واللفظ له.

كما يمكن الاستفادة -أيضًا- مما أَنتجَه العقل المسلم حول القرآن مثل:

١- المعاجم القرآنية، للتعرف علىٰ ما أشكل من الألفاظ القرآنية، ومواضع الكلمات ومعانيها بحسب السياقات، وهكذا.

٢- التفاسير القرآنية، بغير أن تكون ذاتها صارفةً عن التعامل الراشد مع القرآن، أي أنها لا تغني عن اكتشافاتٍ ذاتيةٍ للدارسين في القرآن.

٣- الاتجاهات الجديدة في التعامل مع القرآن في القرنين الماضيين، والتي كُتبَت تحت عنوان «كيف نتعامل مع القرآن»، كما يمكن لهذه الكتابات الرائدة -أيضًا- أن تكون مصدرًا مهمًّا وملهمًا للمؤسسات التربوية في تعلُّم ودرْس القرآن، وحتىٰ علىٰ المستوىٰ الفردي من خلال القراءة الحرة[1].

كما يطرح الأنصاري في «**مجالس القرآن**» ثلاث خطوات منهجية لتَدارُس القرآن، وهي:[2]

١- تلاوة القرآن بمنهج التلقي: أي استقبال القلب للوحي، إما علىٰ سبيل النبوءة -كما كان للنبي ﷺ أو علىٰ سبيل الذِّكر، أي يقع القرآن علىٰ موطن حالة القلب.

---

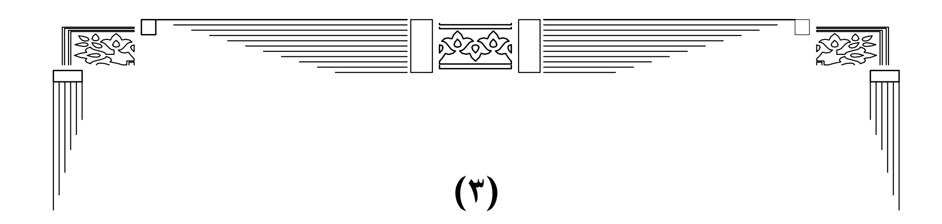
(١) ومن هذه الكتابات الرائدة والمُعينة علىٰ درس القرآن ومدارسته:
- تفسير جزء عم -محمد عبده.
- كيف نتعامل مع القرآن -محمد الغزالي.
- كيف نتعامل مع القرآن العظيم- يوسف القرضاوي.
- مجالس القرآن - فريد الأنصاري.
- مفاهيم قرآنية - السيد عمر.
- التفسير البياني - عائشة عبد الرحمن
- المحاور الخمسة للقرآن الكريم- محمد الغزالي.
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم -محمد الغزالي.
- مباحث في علوم القرآن- مناع القطان.

(٢) فريد الأنصاري: **مجالس القرآن**، ص٦٤.

٢- التعليم والتعلم بمنهج التدارس.

٣- التزكية بمنهج التدبر الذي يحيل الإنسان علىٰ (التفكر) الذي هو المنهج الرباني لقراءة الكون.





(٣)

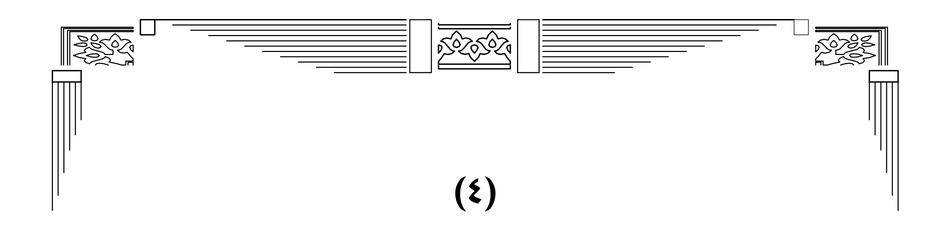
حق الدعوة إليه، تبليغه إلى الناس

القرآن دعوة عالمية، موجَّهة إلىٰ الناس كافةً، وليس للمسلمين فقط ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ومِن ثَم حَمل قسطًا كبيرًا من الخطاب الإنساني، بل إن خطابه الأساسي: ﴿كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهو الخطاب العام في القرآن، يليه الخطاب الخاص: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

والمؤمنون مكلَّفون -بحسب رسالتهم ووظيفتهم الشهودية ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]- أن يبلغوا «كلمات الله» التي آمنوا بها إلىٰ «الناس»، كل الناس.

هذا البلاغ شَرطُه أن يكون مبينًا (البلاغ المبين) وهو شرط: علم ومعرفةٍ بالمبلَغ عنه، وتطبيقٍ وعملٍ بتوجيهاته وأوامره، ولا يتحقق البلاغُ المبين -أيضًا- إلا إذا أخذَت الأمة موقعها الحضاري بين الأمم، فلا بلاغ لضعيفٍ؛ لأنه لن يسمعه أحد. ومِن ثَم فعلىٰ المسلم أن يرتفع إلىٰ مستوىٰ الحضارة المعاصرة -علىٰ الأقل- ليستطيع الوفاء بواجبه نحو «القرآن» بالدعوة إليه وإبلاغه إلىٰ الناس كافةً.

يتطلب البلاغ -أيضًا- معرفة الإنسان المعاصر معرفةً معمَّقةً، وجوانب التأثير في بنائه وتكوينه التربوي، والارتقاء بمستوىٰ الخطاب القرآني المقدَّم له، وذلك عن طريق درْس العلوم الاجتماعية والتربوية التي مكَّنَت من سبْرِ أغوار كثيرٍ من جوانب الإنسان وعوامل التأثير فيه، وكذلك البحث في واقعية القرآن وعقلانيته إزاء المشكلات المعاصرة التي أنتَجَتها الحضارة الحديثة، وأَفقدَت الإنسان فيها إنسانيته ومعنوياته.



(٤)

حق التطبيق، العمل

لا ينفصل الإيمان بالقرآن عن العمل به، فالإيمان صنو العمل في النهج القرآني ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟﴾، وعن عمر رضي الله عنه: "كنا نحفظ العشر آيات، فلا ننتقل إلىٰ ما بعدها حتىٰ نعمل بهن"، ودوائر التطبيق ثلاث: الدائرة الأولىٰ: دائرة الفرد ذاته، والدائرة الثانية: دائرة المسؤولية الجماعية للفرد (الأسرة)، والدائرة الثالثة: دائرة المجتمع والدولة، ولكل دائرة من هذه الدوائر شكلٌ ومضمونٌ لتطبيق القرآن والعمل به.

هذه بعض حقوق القرآن الأساسية التي يجب أن يتم الترويج لها في الواقع الإسلامي، ودفعُ مؤسسات التربية والتعليم والثقافة والإعلام والدعوة إلىٰ تبنِّي قِيم هذه الحقوق، بما يمكِّن من عودة القرآن واستعادته كدافعٍ للبناء الحضاري للمجتمعات الإسلامية المعاصرة.





مقدمات في منهجية تدبر القرآن



مقدمات في منهجية تدبر القرآن

دائمًا نذكر أن التعامل مع القرآن لا بد وأن يستند إلىٰ ما بداخله من ضوابط وتوجيهاتٍ، وتكون هي الإطار للاجتهاد العقلي لتطوير ذلك التعامل، وهذا أمرٌ بدهيٌّ، فالعلوم المعاصرة -علىٰ سبيل المجاز- تَشترط فيمن يتعامل معها أن يكون علىٰ درايةٍ بقواعدها ومناهجها وأدواتها التي تأسَّسَت بداخلها وتطوَّرَت معها، وهذا -أيضًا- أمرٌ منطقيٌّ وموضوعيٌّ؛ إذ كيف نتعامل مع هذه العلوم دون درايةٍ بأسسها وأصولها وفنون التعامل معها كما قرَّرَتها في مَراجعها وكُتبها الرائدة، من هذا المنطلق فلابد من العودة إلىٰ معنىٰ «التدبر» في القرآن والوعي به كأصل من أصول التعامل مع القرآن في المنهجية المقترحة للأسرة.

التدبر

ذُكرَت لفظة القرآن في القرآن (٥٠) مرة، أما فيما يتعلق بطريقة التعامل معه فكانت حول أربعة معانٍ، الأول: **(التدبر)**، وقد ورد هذا المعنىٰ في موضوعين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].. ويُقصَد بالتدبر -كما جاء في المعاجم والقواميس والتفاسير- الفهم، والتفكر -أي فهم القرآن-، والتفكر فيه ليَعرف به المؤمنون الحقَّ من الباطل، و-أيضًا- التأمل، وتصرُّف القلب بالنظر، والتعرف علىٰ الحجج والأدلة والتتبع، والتعقب وراء الظاهر، والتبصر، وإدراك المعاني الكامنة.

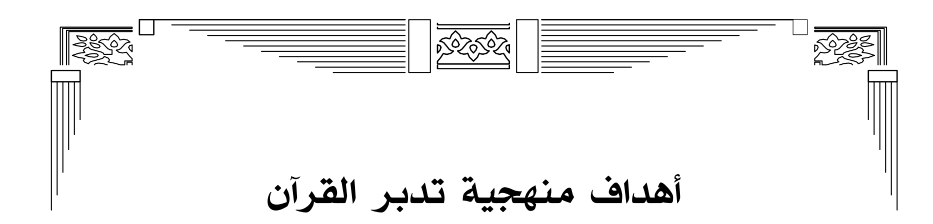
المعنىٰ الثاني: **(مدكر)**، وقد ورد هذا المعنىٰ في أربعة مواضع: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٤٠، ٣٢]. ويُقصَد بـ «مدكر»: الاتعاظ، والعبرة، والتذكر، والدرس، والتعلم.

المعنىٰ الثالث: **(الترتيل)**، ورد هذا المعنىٰ في أربعة مواضع: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤]، . بمعنىٰ: سهولة الكلمة واستقامتها من الفم، و-أيضًا- يعني: الترسل، والتثبت، والتبيين والتفسير.

المعنىٰ الرابع: **(العلم)**، وقد ورد هذا المعنىٰ في موضع واحد: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ٢]، والعلم مطلقًا: إدراك الشيء علىٰ حقيقته، ولا يمكن حصرُه هنا علىٰ القراءة أو تعليم القراءة فقط كما جاء في بعض التفاسير.

هذه الشبكة من المعاني -حول طريقة التعامل مع القرآن من داخل القرآن- نلاحظ في صدارتها الأفعال العقلية وإعمال العقل عند التعامل مع القرآن: التذكر، والتأمل والتفكر، والتبيين، والتفسير، والتبصر، وكلها من وظائف العقل، ويمكن إجمال الطريقة الشاملة لهذه المعاني بـ«التدبر»، وهو ما عنْوَنَّا به هذه السلسة من المقالات «منهجية تدبر القرآن».





أهداف منهجية تدبر القرآن

في ضوء ما سبق جاءت فكرة طرح «منهجية تدبر القرآن»، ويمكن تحديد الغايات النهائية أو الكبرىٰ لهذه الفكرة فيما يلي:

١- تفعيل «المنظومة القيَمية القرآنية» في نموذج حضاريٍّ فاعلٍ في حياة المجتمع والأمة، وذلك بتجسُّدها في الإنسان المسلم.

٢- أن يمتلك العقل المتعاملُ مع القرآن الأدوات المنهجيةَ والوسائلَ التي تمكِّنه من استنهاض «المنظومة المعرفية القرآنية» لتحقيق مقاصد الاستخلاف، الحرية، والتوحيد، والعدل، والتزكية، والعمران.

٣- استعادة الجذوة التصورية والمعرفية والمنهجية للقرآن في واقع الأمة والواقع الإنساني.

٤- تنشئة نموذج الإنسان المتدبر للقرآن (علىٰ مستوىٰ الفرد والمجتمع)؛ بما يحقق التعاملَ الإنساني الرشيد مع القرآن، والتفاعلَ العميق مع أبعاد التنزيل.

٥- الوصول بالفرد والمجتمع إلىٰ المعرفة التي تؤدي إلىٰ العمل بالمعاني المستفادة مِن تدبُّر النص القرآني.





القواعد الكلية للتعامل مع للقرآن

من هذا الهدف في طرح منهجية تدبر القرآن، ننطلق في بناء مقدماتٍ في منهجية تدبر القرآن من قاعدتين أساسيتين هما:

القاعدة الأولىٰ: القراءة باسم الله

يحدد القرآن طريقة قراءته، وذلك في أول سورة (العلق): ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فهذه المنهجية تحدد أن القراءة يجب أن تكون أولًا: باسم الله، باسمه هو فقط.. والمترتب علىٰ ذلك أن تكون القراءة وفقًا لهذا المحدد مبدئيًّا ومطلقًا باسم الله وفقط، وأن منهجية (القراءة) يجب أن تكون من داخل القرآن ذاته.. وأنه لا معنىٰ للمناهج المشوَّشة والمخالفة التي أرادت أن تقرأ القرآن بغير تلك المنهجية (أي بغير اسم الله)، فسقطَت ولم تحصل منه علىٰ غايته الأساسية وفائدته المرجوة للبشر وهي (الهداية) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

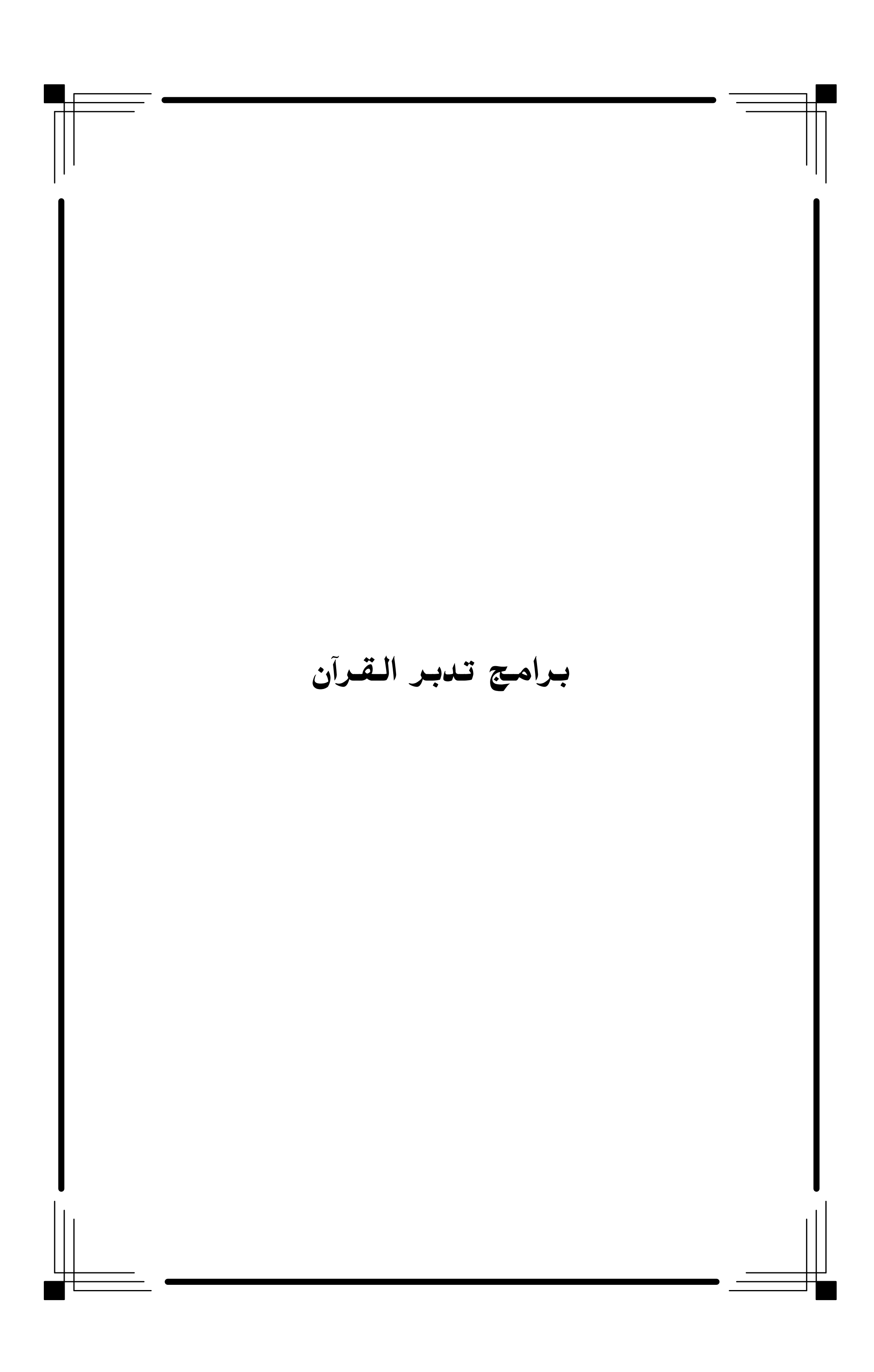
لهذا فإن المناهج الاستشراقية -التي تعاملَت مع القرآن باعتباره كتابًا بشريًّا لا إلهيًّا- تعاملَت معه بغير هذا المنهج، ومثلها المناهج المستغرَبة من داخل الأمة وهي كلها مناهجُ مشوَّشةٌ، أو حتىٰ تلك الأفكار التي رأت في القرآن كتاب (إعجازٍ علمي) أو كتاب (أدبٍ) أو (تاريخٍ)، كلها لم تستطع أن تحصل علىٰ هدايات القرآن الكاملة والحقيقية، ولا أن تقدمه علىٰ حقيقته باعتباره كتاب هدايةٍ للناس أو نقطة انطلاقٍ لفهم العالم وهدايته.

هذه القراءة باسم الله تؤدي إلىٰ تحقيق غايات نزول القرآن ذاته، وأهم تلك الغايات أنه يحقق للنفس والمجتمع: الشفاء، الهدىٰ، العلم، الانسجامية، الإرشاد، الصلاح، العصمة.

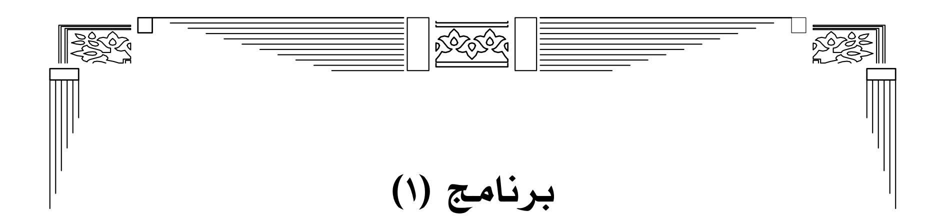
القاعدة الثانية: الشمولية أو الوحدة البنائية، أو كل ما هو نقيض القراءة التفتيتية للقرآن

القرآن أُنزِل -جملةً واحدةً ومرةً واحدةً- من اللوح المحفوظ إلىٰ السماء الدنيا ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ثم نزل علىٰ صدر النبي متفرقًا لحكمةٍ أعلَنها الله تعالىٰ ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]. وعلىٰ ذلك فالمنهجية الراشدة للمسلم هي أن يتعامل مع القرآن جملةً واحدةً، ولا يتعامل بالطريقة التجزيئية؛ حتىٰ يستطيع الوصول إلىٰ الفهم والتدبر السليم، ولهذا ظهر ما يُعرَف بالتفسير الموضوعي، وهو الذي يحقق كثيرًا من هذا المعنىٰ، فالقرآن يفسِّر بعضه بعضًا، والقضايا والموضوعات لا يمكن النظر إليها في القرآن إلا بصورة متكاملة، ومِن ثَم لا يمكن الوقوف علىٰ آية أو بضع آيات في حكمٍ ما أو قضيةٍ ما والتغاضي عن باقي القرآن في ذات القضية، وكذلك إن هذه النظرة الشاملة للقرآن تجعل العقل المسلم يتجاوز النظرة الفقهية التي ينظر بها البعض للقرآن علىٰ أنه كتاب أحكامٍ أو تشريعاتٍ فقط، لتمتد تلك النظرة إلىٰ قضايا التربية والسياسة والثقافة والاجتماع.

إن النظرة الشاملة والكلية للقرآن تساعد في فهم الواقع وإدراك السنن في الكون والطبائع والنفوس، كما أنه يتيح الوصول إلىٰ أُطر عامة حاكمة لحركة الإنسان والمجتمع والتاريخ. إن المعاني الكبرىٰ في القرآن لا يمكن الوقوف عليها من خلال القراءة التجزيئية؛ فالتوحيد، والاستخلاف، والعمران، والخير والشر، والحسنة والسيئة، والتداول، والنصر والهزيمة، والدعوة، والإصلاح، والإيمان والكفر.. هذه المعاني وغيرها لا تؤدي إليها الطريقة المجتزِئة المبتسِرة للقرآن، فلا بد أن يكون القارئ المتدبر يشبِه الطائر المحلِّق في السماء في التلقي واستقبال المعاني القرآنية من خلال القراءة الواعية الراشدة، التي تحيط بالمعنىٰ البعيد والكامن، من خلال الإحاطة بالمضمون الكلي للمعاني القرآنية والغاية الكبرىٰ للقرآن ذاته.



برامج تدبر القرآن



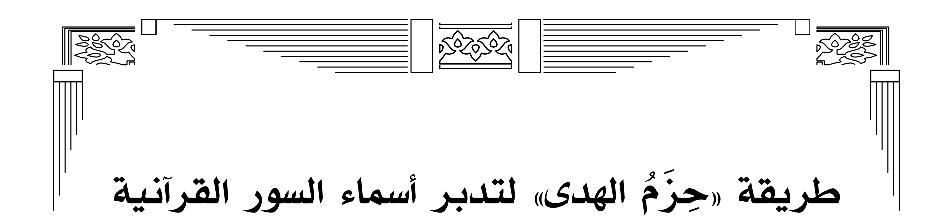
برنامج (١)

تدبر أسماء السور القرآنية للناشئة

إن عملية تدبر القرآن عملية اكتسابية مهارية، كما أنها عملية وجدانية وعقلية أيضًا، والمقصود بهذا الوصف أنها عملية تحتاج إلىٰ تنشئةٍ عليها، لذا نقدم هنا منهجيةً للطفولة الإسلامية، وتمتد مناسَبتُها لما بعدها، وتتواصل مع المنهجية المقدَّمة لاحقًا للراشدين، وتتمثل تلك المنهجية المقترَحة في برنامج (تدبر أسماء السور القرآنية)، وتفصيله كما يلي:

الفكرة العامة:

برنامج (تدبر أسماء السور القرآنية) موضوعه الأساس هو أسماء السور والتدبر كمرحلة أُولىٰ للتدريب علىٰ تدبر القرآن جملةً وإدراك مقاصده، ولعله يتناسب مع الناشئة كما يتناسب مع الكبار أيضًا، أما فكرته فتقوم علىٰ أساس الإحاطة باسم السورة معنىٰ ومبنىٰ وتاريخًا ومعرفةً، ودلالة ذلك الاسم وأهميته في السورة التي عنون بها، ومقاصده الحياتية، ودلالاته الاجتماعية والنفسية.. يشير الإمام البقاعي الشافعي (في كتابه مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور) إلىٰ أن اسم السورة يدل علىٰ مقصودها ومضمونها: "...كل اسم سورة مترجم عن مقصودها؛ لأن اسم كل شيء تلحظ المناسبة بينه وبين مسماه، عنوانه دالٌّ بالإجمال علىٰ تفصيل ما فيه... ومقصود كل سورة هادٍ إلىٰ تَناسبها". وغير ذلك مما يمكن استقراؤه فيما يتعلق باسم السورة، ولتسهيل هذه الطريقة نقترح برنامج «**حِزَمُ الهدىٰ**» في هذه المنهجية.



طريقة «حِزَمُ الهدى» لتدبر أسماء السور القرآنية

[أ] خارطة التطبيق:

يتناسب هذا البرنامج مع الناشئة من (٥-١٢ عامًا)، ويتطلب تصميمه أن يقوم المربي بإعداد **(حِزَمُ الهدىٰ)** لمادته التربوية التي يقدمها للطفل أو الناشئ، ونقصد (بحِزَمِ الهدىٰ): تصنيف أسماء السور القرآنية إلىٰ مجموعات متجانسة ومتشابهة يكون بينها رابطٌ أساسيٌّ، وعلىٰ معيار واحد وثابت، مثل:

- **حزمة السور التي سُمِّيَت باسم بشر،** مثل: (آل عمران، النساء، يونس، يوسف، هود، إبراهيم، مريم، طه، الأنبياء، المؤمنون، لقمان، يس، محمد، نوح، الإنسان، الناس).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت بأسماء كائنات حية أو حشرات اجتماعية،** مثل: (البقرة، النمل، النحل، العاديات، . . ، . .).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت بأسماء ظواهر طبيعية وثروات،** مثل: (الرعد، الدخان، الذاريات، الحديد، التكوير، الانفطار، الانشقاق. . ، . . ، . .).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت بأسماء وحدات الزمن (أيام - أوقات)،** مثل: (الجمعة، الفجر، الليل، الضحىٰ، القدر، العصر، الفلق. . ، . .).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت باسم (الكواكب والنجوم)،** مثل: (النجم، القمر، الشمس، . . ، . .).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت باسم (الظواهر الطبيعية)،** مثل: (الانشقاق، التكوير، التكاثر، . . ، . . .).

- **حزمة السور التي سُمِّيَت باسم الأماكن**، مثل: (الطور، الروم، الكهف، . . .).

وهكذا يجتهد المربي في عملية تصنيف (حزم الهدىٰ) تصنيفًا دقيقًا وشاملًا بحيث يُسكِّن أسماء السور القرآنية الـ(١١٤) في حِزم يطلَق عليها (حزم الهدىٰ).

الخطوة الثانية في تصميم **(حِزَمُ الهدىٰ)**: أن يقوم المربي بالبحث عن خصائص كل حزمة ودلالتها المتشعبة حسب تلك الخصائص (فيما يتعلق بأسماء السور)، وعناصر الجمع أو معيار الجمع بينهم (كل حزمة مع بعضها البعض)، ثم بيان علاقات هذه الحزم (جميعها) والروابط التي تربط بينها (وفي هذا بالطبع يمكن أن يأخذ عشرات الحلقات المتتابعة مع مناسبة الأنشطة المقدَّمة (والتي نعزم علىٰ إعطاء إشارات منها في هذا المقترح بإذن الله) لتكون عونًا للطفل في استقبال المعنىٰ ورسوخه).

مثال (١): إدراك أوجُه الشَّبه داخل الحزمة ذاتها: (حزمة السور التي سُمِّيَت باسم (إنسان) (يمكن التطرق فيها إلىٰ أسماء الرسل ولمن أُرسِلُوا (أقوامهم)؟ وما أسماء أقوامهم؟ وما ترتيب ذلك البعث وتلك الرسالة؟ والاختلاف في العصور الزمنية بين هؤلاء الرسل. . ومكانة السيدة مريم بين الرسل. . بمعنىٰ إدراك أوجُه الشَّبه والاختلافات والعلاقات بين الحزمة ذاتها).

مثال (٢): إدراك أوجُه الشَّبه بين الحزم بعضها وبعض: (بمعنىٰ ما الذي يربط الإنسان بالثروات بالكائنات الحية بالظواهر الطبيعية. . .، . . .)؟ وما أوجه الاختلاف بينهم؟ وما العلاقات المعيارية بينهم في ضوء النهج القرآني؟

الغرض الأساس لهذه الخطوة -بناء/ تصميم (حزم الهدىٰ) - هو تقديم القرآن للطفل بصورة كلية وشاملة؛ ليتعود علىٰ التعامل الموضوعي والاستقبال الكلي للقرآن عند الدخول في مرحلة النضج والرشد، وبذلك نتغلب علىٰ

النظرة التفتيتية للقرآن التي فَقدَت الأمة معها مقاصد القرآن ومعانيه ومبانيه، كذلك مَدُّ الطفل بطرقٍ للتفكير الوصفي والمقارن، وممارَسة إعمال العقل عند التعرض لآي القرآن.

[ب] مجالات تدبر أسماء السور القرآنية:

نطرح هنا المستوىٰ الثاني لبرنامج تدبر (أسماء السور القرآنية ٥-١٢ عامًا).. فبعد أن تم تقسيم أسماء السور إلىٰ حِزَم حسب معيار محدَّد، في هذا المستوىٰ نطرح مجالات التدبر لأسماء السور (في كل حزمة علىٰ حدة) وذلك في ضوء عدة مجالات تتقاطع مع اسم كل سورة، نستخرج منها في دليل المعلم ما يمكن استخراجه حسب كل اسم ومعطياته القرآنية والمجالية والدلالية، ومجالات التدبر المقترحة هي:

١- اللغة.

٢- المفاهيم.

٣- المعرفة.

٤- التصورات.

٥- السلوك.

٦- الجمال.

٧- القيم.

٨- الوجدان.

نحاول من خلال اسم كل سورة علىٰ حدة من (سور حزمة الهدىٰ) أن نستخرج مجالات التدبر الثمانية (والتي يمكن أن نضيف إليها أو نحذف منها حسب كل اسم ومعطياته ودلالته)؛ بمعنىٰ أن اسم السورة المفردة يكون

موضوع التدبر لهذه المجالات الثمانية التي يمكن أن تزيد أو تنقص، بحسب المعطيات والدلالات كما ذكرنا سابقًا، كما أنها تتنوع في الطرح بحسب المستويات المتباينة داخل السن المقترَح (٥-١٢)، فتتدرج من البساطة إلىٰ العمق، ومن الجزئية إلىٰ الكلية، ومن المادية إلىٰ التجرد.

مثال: سورة الضحىٰ..

اللغة: وقت ارتفاع النهار وامتداده.

المفاهيم: وحدة من وحدات الزمن (اليوم)..

المعرفة: المعرفة هنا يمكن أن تتضمن ثلاثة جوانب، **الجانب الأول**: **معرفة علمية** بطبيعة هذا الوقت وخصائصه بين أوقات النهار، وهذا يتطلب حشد معلومات تتصل بطبيعة وقت الضحىٰ وتأثيره علىٰ الإنسان والنبات في ضوء مناسبة المرحلة العمرية وتنوُّع المعلومات وتدرُّجها، **الجانب الثاني**: **ما يتصل بأفعال المسلم المستحَبة فيه،** وهذا يتطلب أيضًا حشد المعلومات بما يتصل بوقت الضحىٰ في الأحاديث النبوية وتقديمها بما يناسب المرحلة العمرية، **الجانب الثالث**: **معرفة مناسبة** النزول لسورة الضحىٰ والتعرض إلىٰ المعاني الرئيسة فيها.

التصورات: نتوقع أن يتكون لدىٰ الطفل -في ضوء مصاحَبة مربٍّ واعٍ- فكرةٌ شاملةٌ عن اسم «الضحىٰ» معرفةً وشرعًا.

السلوك: (الحث علىٰ صلاة الضحىٰ) (العناية بالوقت الذي أَقسَم الله به)، (الاهتمام بالقراءة العلمية عن هذا الوقت...، ...).

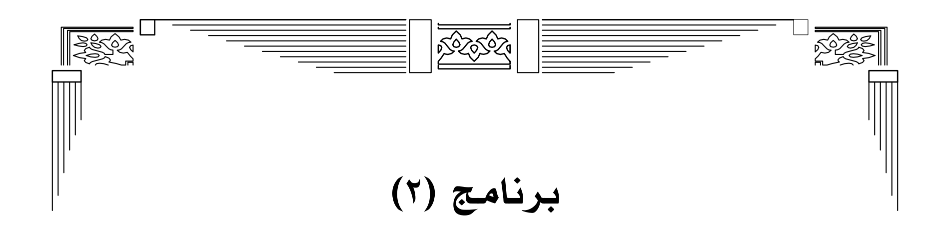
الجمال: استدعاء -أو استحضار- البُعد الجمالي في لوحة فنية تعبِّر عن هذا الوقت أو حضور الطفل فيه في ذات الوقت نفسه.. أو أي أنشطة أخرىٰ ترتبط بإبراز هذا البُعد.

القِيَم: نتوقع أن يتكون لدىٰ الطفل (اهتمام بالوقت، العناية بالأعمال المرتبطة به، أداء صلاة الضحىٰ، التأمل الكوني في أقسام الوقت، ...).

الوجدان: يرتبط الطفل وجدانيًّا بهذا الوقت (الضحىٰ) وما يتعلق به من ممارسات وأفكار في ضوء الحشد المعرفي والإيماني المناسب الذي تم في مجالات التدبر السابقة.

(هذا النموذج علىٰ سبيل المثال المختصر والذي يحتاج إلىٰ جهد كبير من المرشد أو المربي الذي يقوم بعملية التفاعل والتدارس القرآني مع الأطفال في هذه السن الباكرة).





برنامج (٢)

الكليات الأربع لتدبر القرآن

نطرح هنا عدة كليات أساسية في منهجية تدبر القرآن للراشدين، الذين يستطيعون التعامل بوعي أكبر مع القرآن الكريم، وإدراك مقاصده ومعانيه، نطرح هذه الكليات مع نماذج تطبيقية مختصَرة، وعلىٰ القارئ التمرن علىٰ القراءة من خلال هذه النماذج والتوسع فيها.

الكلية الأولىٰ: تحديد المقصد العام للسورة القرآنية، والمقاصد التابعة

تقوم هذه الكلية علىٰ مبدئية النظر إلىٰ السورة باعتبارها وحدةً واحدةً من النظم والمعاني والمقاصد، فالسورة الواحدة مهما تعدَّدَت فيها المواقف والأحداث، وتَنوَّع فيها الخطاب بين عامٍّ وخاصٍّ، وتنوَّع فيها المخاطَب (العقل أم الوجدان، المسلم أم غير المسلم).. فإنها كلها يحيطها مقصدٌ أساسٌ، ومقاصد فرعيةٌ توضحه وتدعم وجوده في ذهن المتدبر، فكل هذه التنوعات والتعددات إنما هي متآلفةٌ وليست مختلفةً فضلًا عن أن تكون متناقضةً؛ فوحدة المصدر للقرآن ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ووحدة رسالته ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤] يقتضيان هذا التآلف العام بين سور القرآن -عمومًا- والانسجام الخاص بين السورة الواحدة -خصوصًا-، ووحدة الغاية والمقصد.

يذكر القاضي أبو بكر ابن العربي (في كتابه سراج المريدين) في مبدئية وحدة السورة قوله: "...ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتىٰ تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني".

كما يطرح الإمام البقاعي الشافعي في كتابه الموسوعي (مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور) معتمدًا في تحديد مقصد السورة من اسمها أو أسمائها -التي ذكرت في الروايات المختلفة-، ففي سورة الفاتحة -علىٰ سبيل المثال- يذكر: أن مقصود هذه السورة هو مراقَبة العباد لربهم.. فإن التزام اسمه تعالىٰ في كل حركة وسكون داعٍ إلىٰ ذلك، وعلىٰ ذلك دلَّت أسماؤه.. وأن أسماء هذه السورة -مع الفاتحة- أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني، والأساس، والكنز، والشافية، والكافية، والواقية، والشفاء، والرقية، والحمد، والشكر، والصلاة والدعاء، والصلاة.. فمدار هذه الأسماء علىٰ أمرٍ خفيٍّ، كافٍ لكل مرادٍ، وذلك هو المراقَبة، وكل شيء لا يفتتح بها لا يُعتد به... وهي -أي سورة الفاتحة- جامعةٌ لجميع معاني القرآن، ولا يَلزم من ذلك اتحادُها مع مقصوده بالذات، وإن توافقا في المآل، فإنه فرق بين الشيء وبين ما جَمع ذلك الشيء[1].

من وسائل هذه الكلية، ما عُرف بنظام «عقد المعاني» علىٰ منهجية وحدة السورة أو مقاصد السورة، ويذكر في ذلك «أن القرآن في قطعة قطعة منه تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها علىٰ تَباعُد ما بين أطرافها».

مثال ١: نظام عقد المعاني في سورة البقرة

إن سورة -البقرة- علىٰ طولها تتألف وحدتها من: المقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة علىٰ الترتيب التالي[2]:

- (المقدمة): في التعريف بشأن القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدًّا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يُعرِض عنه من لا قلب له، أو كان في قلبه مرض.

---

(١) مصاعد النظر، ص٢١٠.

(٢) عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص١٤٣.

- (المقصد الأول): دعوة الناس كافةً إلىٰ اعتناق الإسلام.

- (المقصد الثاني): في دعوة أهل الكتاب -خاصةً- دعوةً خاصةً إلىٰ تركِ باطلهم والدخول في هذا الدين الحق.

- (المقصد الثالث): في عرضِ شرائع هذا الدين تفصيلًا.

- (المقصد الرابع): ذِكر الوازع والنازع الديني الذي يَبعث علىٰ ملازَمة تلك الشرائع ويَنهَىٰ عن مخالفتها.

- (الخاتمة): في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يُرجَىٰ لهم في آجلهم وعاجلهم.

مثال ٢: مقصد السورة، ويطلَق عليه -أيضًا- «عمود السورة»، وهو يعتمد -كما أشرنا سابقًا- علىٰ النظرة الكلية للسورة القرآنية؛ «فالسورة من القرآن لها وحدتها البنائية الخاصة بها، ضِمن الوحدة الكلية للقرآن المجيد، وإدراك الوحدة البنائية للسورة، والكشف عن معانيها، وإبراز وحدتها، يجعلنا نبحث عن «عمودها الأساس»، فلكل سورةٍ عمودٌ؛ لأن السورة بمثابة بيتٍ كبيرٍ، له دعامةٌ أساسيةٌ، أو عمودٌ يقوم عليه البيت، تحيط بهذه الدعامة الأساسية دعاماتٌ أو أوتادٌ فرعيةٌ أخرىٰ بالنسبة للعمود الأساس؛ لتتضافر معه في تشكيل بنية السورة»[(١)].

نصل من خلال ما تَقدَّم حول هذه الكلية الأولىٰ -الوقوف علىٰ «مقاصد السورة» - إلىٰ خلاصة معرفية مفادها أن تحديد مقاصد السورة إنما يعتمد علىٰ النظرة الكلية والشاملة للقرآن الكريم، وأنه جملة واحدة، ومن مصدر واحد، ورسالة واحدة، وإن تنوَّعَت طرق خطابه وبيانه وموضوعاته، وأن إحساس المسلم القارئ للقرآن بهذه المنهجية يجب أن ينشغل بهذه الوَحدة في قراءته مهما كانت المعاناة العقلية في ذلك، إلا أنها تحقِّق في النهاية مقصد القراءة وهو التدبر.

---

(١) العلواني، أفلا يتدبرون القرآن، ص١٣٧.

الكلية الثانية: استخراج المفاهيم الرئيسة

بدأ القرآن في تربيته للجماعة المسلمة التي انطلقَت من فورها من حال الظلمات إلىٰ النور، فراح يحدد لها مفاهيمها ويوضحها، ويصحح أوجُه اللبس والاختلاط بين بعضها البعض؛ وذلك لتحديد الهوية والتأكيد علىٰ الأصالة، لذلك جاءت لفظة ﴿قُولُوٓاْ﴾ في هذا الإطار من أجل: بناء مفاهيم الجماعة المسلمة، وتصحيح الاعتقادات المشوَّهة.

ومن نماذج المفاهيم التي اعتنىٰ القرآن بتصحيحها وبنائها من جديد عند الجماعة المسلمة ما يلي:

١- **مفهوما «الإسلام» و«الإيمان»**: ميَّز القرآن بين مفهومي الإسلام والإيمان علىٰ أساس العام والخاص، والكلي والجزئي بينهما، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ [الحجرات: ١٤]، فالإسلام له شروطٌ ظاهرةٌ يمكن أن نراها جميعًا، ولكن الإيمان خاصية بالقلب لا يمكن أن يراه إلا الله تعالىٰ، فالإسلام بنطق الشهادتين يجعل الإنسان ينطوي تحت مسمىٰ (مسلم)، أما الإيمان فهو عملٌ قلبيٌّ لا يطَّلع عليه ولا يدرك حقيقته إلا الله.. أو لأن الإسلام قولٌ فقط، بينما الإيمان قولٌ وعملٌ، والعمل شَرطُه النية، والنية محلها القلب الخاص بعلم الله.. فالذين لا يصدِّقون بأعمالِهم أقوالَهم لا يندرجون تحت مظلة (المؤمنين) وإن بقوا تحت مظلة (الإسلام). أشارت بعض التفاسير إلىٰ شرط العلم بالشريعة حتىٰ يندرج المسلم تحت مظلة الإيمان، وفيه شيء من المنطق؛ إذ كيف يعمل المسلم بالتكليفات دون علم؟ وهل يعبد الله علىٰ جهل؟ وكيف يمكن أن يتم معرفة الأوامر والنواهي؟ والأحكام والحدود؟ والتشريعات والتكليفات دون علم؟

وعليه؛ فيمكن للمتدبر أن يتتبع أحوال اللفظتين: الإسلام، والإيمان؛ ليكوِّن تصورًا عامًّا وخاصًّا لهما في ضوء التتبع والاستقراء لأحوالهما في القرآن، مدركًا -بملكة التفكير الناقد والمقارن- جوانب الاشتراك، والتشابه،

والاختلاف والتباين، كما يمكنه أن يدرك خصائص كلا المفهومين وطبيعة العلاقة بينهما في هذا الإطار القرآني.

٢- مفهوما «راعنا» و«انظرنا» ومدخل جديد للتعامل مع بناء المفهوم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤].

وهنا مدخل مهم لإدراك طبيعة المفهوم الذي يُفهَم من الكلمة، فإن المفهوم كلمة، ولكنه ليس كلمةً فقط، بل أيضًا بما تحمله الثقافة التي تَشبَّع بها هذا المفهوم، وما حقيقته في تلك الثقافة ومقصوده، فرغم أن الكلمتين «راعنا» و«انظرنا» بمعنىٰ قريب وواحد: (رَاعِنَا: فِعْلُ أَمْرٍ. أمر من المراعاة، أي: رَاعِنَا سَمْعَكَ، أي: اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه أو انظر في مصالحنا وتدبير أمورنا.. انْظُرْنا: انْظُرْ إِلَيْنَا، أو انْتَظِرْنَا وتَأَنَّ عَلَيْنَا وَأَمْهِلْنَا).. ولكن اليهود (البعد الثقافي للكلمة) كانت تَستخدم «راعنا» في سبِّ وتقبيح النبي ﷺ، فجاء أمر الله للمؤمنين أن لا يقولوا هذه الكلمة ويستبدلونها بكلمة أخرىٰ لا تحمل هذا التشبع الثقافي بالسب والتوبيخ، والذي كان يفعله اليهود معه ﷺ.

من الدراسات المهمة في هذا الشأن دراسة (خارطة المفاهيم القرآنية)[1]، والتي عَدَّت ما يَقرب من (٢٥) مفهومًا قرآنيًّا استخرجها من القرآن الكريم، منها: مفهوم العبادة، الحرم، السير، الجهاد، العفة، الصبر، سنة الله.. وغيرها من المفاهيم القرآنية. ويمكن للقارئ الرجوع إليها من أجل التمرين والتدريب علىٰ طريقة استخراج المفاهيم من القرآن مباشرة.

الكلية الثالثة: التصورات التي تتضمنها السورة

مجال هذه التصورات هي (الله، والإنسان، والمجتمع)، القرآن هو المرتكَز الأساس في بناء الشخصية المسلمة، وهو الذي يمنحها رؤية الخالق والعالم والكون، وتتضمن هذه الرؤية نظام القِيم الذي ينبغي أن يعتقد

---

(١) السيد عمر: **خارطة المفاهيم القرآنية**، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩.

الإنسان، فيما يسمَّىٰ برؤية العالم أو النموذج المعرفي، أو الرؤية الكلية، بمعنىٰ امتلاك التصور والقدرة علىٰ تفسير الظواهر الكونية والإنسانية في ضوء مرجعية الوحي، وهذا لن يتأتَّىٰ إلا بنظرةٍ تدبريةٍ راشدةٍ للقرآن.

ويمكن أن نشير إلىٰ نماذج من التصورات الأساسية التي يمكن استخراجها من القرآن كما يلي:

١- **مجال التصور: (الله)** «لا إله إلا الله» هي نواة العقيدة لدىٰ المسلم، ويدور القرآن حول فكرة «التوحيد» في مجال التصور الإلهي، وهي الفكرة القائمة علىٰ التنزيه الكامل لله تعالىٰ، تنزيهه عن التشبُّه، والترمُّز والتجسيد والتمثُّل أو الشرك؛ فالله تعالىٰ واحدٌ لا شريك له في الرؤية القرآنية، وهو ما تُجمِله سورة الإخلاص ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤] فهذه السورة هي خلاصة وكمال فكرة التوحيد من الناحية المعرفية والإيمانية في القرآن.

إن كلية التدبر في مجال التصور الإلهي هنا تعتمد علىٰ مركزية فكرة «التوحيد»، وأبعادها وتمايُزها عن مجال التصور الإلهي في المسيحية واليهودية، وعن التصورات الوضعية التي أشار إليها القرآن أيضًا ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

كذلك يقدِّم القرآنُ الاستدلالَ العقلي علىٰ الاستدلال النقلي في مسألة التصور الإلهي، فيشير القرآن دائمًا إلىٰ استخدام العقل والاستدلال في التعرف علىٰ الله تعالىٰ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤]. ويرجح القرآن العقل علىٰ النقل في الاستدلال علىٰ الله تعالىٰ، ويدعو الكافرين إلىٰ الإتيان بحججهم ودلائلهم علىٰ هذا الكفر وعدم الإيمان ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤].

ويعبِّر التوحيد -كما يقول إسماعيل الفاروقي- بعبارته البالغة الإيجاز: «لا إله إلا الله»، عن معانٍ ثلاثةٍ علىٰ المستوىٰ القِيمي، أولها: أن الخليقة هي المادة التي ينبغي تجسيد الإرادة الإلهية المطلَقة فيها. وكل مقومات الخليقة في الوضع الذي فطَرها الله تعالىٰ عليه خيره. والخليقة ليست هي أفضل العوالم الممكنة فحسب، بل إنها كاملة ولا عيب فيها. ويكفينا هنا التدبر في هذين الشاهدين القرآنيين: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٣-٤].

إن التدبر في مجال التصور الإلهي يقود -ضِمن ما يقود- إلىٰ أولوية الدرس العقلي في مسألة الإيمان، وهو من الأهمية بمكانٍ في كل العصور والأزمنة لا سيما العصر الحالي، وقد انتشرَت فيه موجات الإلحاد حتىٰ في البلاد الإسلامية، وبدأَت تتغلغل الدعوات إليها، وما كان لهذه الدعوات أن تجد قبولًا لها لو انبنىٰ التعامل مع القرآن علىٰ أساسٍ من التدبر، وانبنىٰ الإيمان علىٰ الدرس العقلي الذي أرساه القرآن ذاته.

وفي ضوء ذلك يمكن للمتدبر أن يصل إلىٰ قواعد متعددة في تأسيس الإيمان علىٰ أساس عقلي، وأدلة وحجج وبراهين لها قوة الثبات والمواجهة الفكرية والنفسية التي يمكن أن تواجه المسلم في ظل ثورة الاتصالات والغزو الفكري والعقدي الذي تتعرض له أمتنا خلال قرنٍ أو يزيد، وكذلك ظلال الإيمان علىٰ واقع الحياة الفردية والجماعية بل والإنسانية أيضًا.

بصفةٍ عامةٍ؛ لا تكاد تخلو سورة من القرآن إلا وهي متضمنة لهذا المجال (التصور الإلهي)؛ لأن فكرة التوحيد فكرةٌ ضاربةٌ في جميع التصورات القرآنية: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والجمالية.

٢- **مجال التاريخ**: يشمل هذا المجال البحث عن رؤية المسلم لدوره في التاريخ، ومكانته التي حدَّدَها القرآن، ومِن ثَمَّ يتشكل وعيُه التاريخي وفقًا

لهذا الدور، وعلىٰ سبيل المثال، يشير القرآن إلىٰ تلك المكانة، وهذا الدور في قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: ٦١]، وهذا المعنىٰ يجب أن يلتقطه المسلم خلال قراءته التدبرية في القرآن، باعتباره مسؤولًا عن أحداث التاريخ وحركتها، ومِن ثَم ينبذ السلبية التي تحكُم حركة الأمة اليوم، والقدرية المذمومة في تلك الحالة. هذه هي المسؤولية الفردية والجماعية في التغيير التي يهدف إليها القرآن ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

لعل من المعاني التي يجب أن يصل إليها المتدبر وأن تشكِّل له تصورًا أساسيًّا حول التاريخ، هي أن الإسلام أعطىٰ اعتبارًا كبيرًا للحياة، ولم يرفضها كما فَعلَت المسيحية علىٰ سبيل المثال؛ لأنها مسرح حياة المسلم التي يمارس فيها فِعلَ الاستخلاف. ويكفي أن الله تعالىٰ يساوىٰ بين منع إعانة المسكين علىٰ الحياة وبين التكذيب بالدين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ١-٧]. كذلك من المهم في مجال الوعي التاريخي الوقوفُ علىٰ مفهومي التداول والتدافع القرآنيين اللَّذَين يشكِّلان للإنسان المسلم طبيعة تَصوُّرِه عن الصراعات الموجودة، وطبيعة مركزيته الحضارية فيها.

٣- مجال المجتمع: (نظام القِيم).. مسار التدبر في هذا المجال هو البحث عن القِيم التي تحكُم حركة المجتمع وتَطوُّرَه، لا سيما وأن المجتمع هو مجال تحقيق المشيئة الإلهية، وتحقيق رسالة الإنسان المسلم، من خلال تلك المشيئة؛ ومِن ثَم فالمتدبر هنا مُطالَبٌ بالتأمل في القرآن وأبعاده الاجتماعية، وما يتصل بالنظر إلىٰ المجتمع وطبيعة العلاقات فيه، وشبكة التواصل ومداها ومحتواها، لا سيما وأن الشطر الأعظم من أحكام الشريعة الإسلامية تتعلق بالنظام الاجتماعي. وعلاوةً علىٰ ذلك؛ فإن الجوانب

الشخصية -من الشريعة الخاصة بشعائر العبادات، وبالشعائر ذاتها- تكتسب في الإسلام بُعدًا اجتماعيًّا من الخطورة بمكانٍ، إلىٰ حدٍّ أن إضعافه أو إنكاره يمثّل تعطيلًا لها بحكم طبيعتها. والبُعد الاجتماعي جليٌّ في بعض الشعائر مثل الحج والزكاة، بحكم طبيعة تلك الشعائر وأثرها. وفي حين قد يكون البُعد الاجتماعي أقلَّ وضوحًا في شعائر أخرىٰ، مثل الصلاة والصوم، فإن المسلمين مُجمِعون علىٰ التسليم بأن الصلاة التي لا تؤدي بصاحبها إلىٰ هجر الشر صلاةٌ غير مقبولة عند الله، والحج الذي لا يحقق منافع اجتماعية للحاج غيرُ كاملٍ. كما يمكن -أيضًا- أن يتأمل المتدبر مفاهيم: المساواة، والعدالة، والحرية، والشورىٰ، باعتبارها مفاهيمَ أساسيةً في بناء المجتمع الإسلامي أقَرَّها الوحي وحفَّزَ عليها.

الكلية الرابعة: منهجية «الإصلاح» وقضاياه

الدعوة الأساسية لمبلِّغي الوحي/الرسالة وأهل النبوة هي الدعوة إلىٰ الإصـــــلاح ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هُود: ٨٨]، والقرآن بالأساس هو كتاب هداية للبشر جميعًا ليخرجهم من الظلمات إلىٰ النور، ومِن ثَم فالتعرض للقرآن وتدبُّره هو تَعرُّضٌ لتجارب في الإصلاح والهداية، أبطالها -لو جاز القول- هم الأنبياء والرسل، وأولياء الله، والبشر الصالحون، والبحث في هذا المجال (مجال الإصلاح وقضاياه) يجعلنا نتوقف أمام عدة قضايا، أهمها: منهجية الإصلاح، وموضوع الإصلاح، وخصائص القائم بالإصلاح وصفاته، وخصائص عملية الإصلاح ذاتها. ونشير فيما يلي إلىٰ بعض الأفكار التي يمكن أن يتأملها المتدبر في هذه الكلية الخامسة.

١- **منهجية الإصلاح**: تتعدد منهجية الإصلاح في القرآن، ويمكن أن نرصد مسارين أساسيين هما: مسار الإصلاح الفردي، والذي يتمحور حول إصلاح الفرد وتهيئته لأداء وظيفته الكبرىٰ التي أُعِد من أجلها في الكون، وهي

العبادة بمفهومها الكوني العام ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والتغير المطلوب هنا هو التغير الذاتي الذي يؤكده الوحي كسبيلٍ لبناء الشخصية الإنسانية من أجل صلاحيتها لأداء هذه المهمة الكونية الإصلاحية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والمنهجية الثانية: هي منهجية الإصلاح الجماعي، وهي منهجية الأنبياء والرسل والصالحين في أقوامهم، كما في حالة شعيب عليه السلام ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٤-٨٨]. أو كما جاء في دعوة أحد الصالحين من قوم فرعون، حين دعا قومه إلىٰ الهداية والإيمان بالرسل ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

٢- قضايا الإصلاح: تنوَّعت قضايا الإصلاح في القرآن الكريم، ولعل من أبرزها قضية إصلاح التصور الجاهلي عن المرأة، وإصلاح ما كانت تعاني منه جراء تلك النظرة الدونية والمتدنية التي هيمنت علىٰ العقل الجاهلي وكل عقل جاهلي في المستقبل، فجاء الإسلام مبرزًا مكانتها الإنسانية ومساواتها مع الرجل، وأقرَّ القرآن القواعد التالية لإصلاح هذا التصور الخاص بالمرأة فكرًا وواقعًا، وبناء وضعٍ إنسانيٍّ جديدٍ لها، ومن جوانب النسق الإصلاحي لموضوع المرأة تقعيد القواعد القرآنية والاعتقادية التالية:

أ. القاعدة الأولىٰ: المساواة

فالمساواة من القواعد التي أقرَّها الإسلام للمرأة مع الرجل، وتشمل هذه المساواة مجالات الحياة الدنيا والآخرة، وهي كما يلي:

√ مساواة في الخَلق

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٤٥]، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [الليل: ٣].

√ مساواة في الجزاء والعمل

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

√ مساواة في العبادات

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

√ مساواة في التكاليف الاجتماعية

﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

ب. القاعدة الثانية: التمايز والتكامل بين دور المرأة والرجل

يرىٰ الإسلام أن المرأة والرجل خُلِقا لتحقيق وظيفتين مختلفتين، ولكنهما متكاملتان. يقول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ﴾ [النساء: ٣٢]، فوظائف الأمومة المتمثلة في الرعاية المنزلية وتربية الأطفال، ووظائف الأبوة المتمثلة في حماية البيت وتزويده بمتطلبات المعيشة والقوامة العامة، استدعَت اختلاف الرجل عن المرأة في البنية الجسدية والنفسية والعاطفية. كما اهتم بتشريعاتها وأحوالها حال كونها زوجةً أو مطلَّقةً أو أمًّا وهكذا.. وهو ما يمكن للمتدبر تأمُّله والنظر فيه عبْر آيات القرآن.

كما أشار القرآن إلىٰ **قضايا الإصلاح الاجتماعي بصفة عامة والسياسي** بصفة خاصة، بدعم مبدأ الشورىٰ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]، وتخصيص سورة كاملة تحمل اسم هذا المبدأ.

كذلك قدم القرآن منهجًا في **الإصلاح الاقتصادي** بتحريم الربا، وتحريم التطفيف في الميزان، وإقرار الزكاة والصدقات والتكافل وجدارة العمل، وكلها عناصر أساسية لبناء اقتصاد المجتمعات.

٣- **خصائص المصلِح وصفاته**: أهم هذه الصفات التي أشار إليها القرآن والتي ينبغي تتبُّعها في القرآن هي «القدوة»، قدوة المصلح ذاته ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾ [هود: ٨٨]، والصبر والجلَد علىٰ أمْر الدعوة وتحمُّل مَشقَّتها ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠]، وقول الحق والتضحية في سبيله ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، كذلك الاحتكام إلىٰ الدليل العقلي والمشاهَدات والتجربة، وقصة سيدنا إبراهيم زاخرة بهذه المعاني الشاملة للأدوات العلمية التي يجب علىٰ المصلِح أن يتسلح بها في دعوتِه.

ما نودُّ التأكيد عليه أن ما أوردناه في مقدمات هذه المنهجية يحمل معنىٰ المقدمات معنىٰ ومبنىٰ، وأن علىٰ القارئ المتأمل المتدبر للقرآن أن يستنطق القرآن بقدر ما يستطيع استنطاقه بكل شؤون الحياة الدنيا؛ ليستقيم بها حال الفرد والأمة، والمسلم في ذلك بحاجة إلىٰ أدوات علمية معاوِنة له في هذا التدبر، منها ما نشير إليه من مصادر علىٰ سبيل المثال:

١- طه العلواني: **أفلا يتدبرون القرآن،** القاهرة، دار السلام، ٢٠١٠.

٢- طه العلواني: **الوحدة البنائية للقرآن المجيد،** القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ٢٠٠٨.

٣- البقاعي الشافعي: **مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور،** الرياض مكتبة المعارف.

٤- عبد الله دراز: **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،** القاهرة، دار القلم، ط١٠، ٢٠٠٨.

٥- عبد الله دراز: **مدخل إلىٰ القرآن الكريم،** القاهرة، دار القلم، ط٥، ٢٠٠٣.

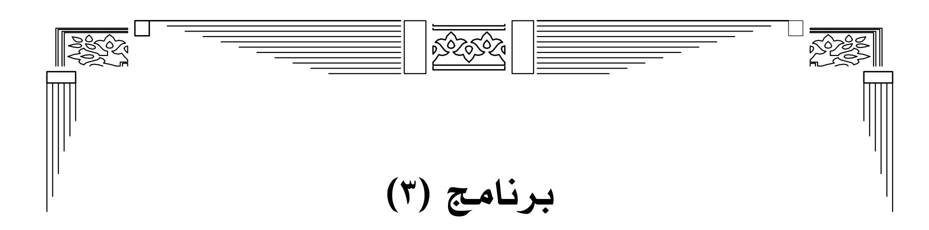
٦- السيد عمر: **خارطة المفاهيم القرآنية،** دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٩.

٧- طه العلواني: **الجمع بين القراءتين قراءة الوحي وقراءة الكون،** القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، ط٢، ٢٠٠٨.

٨. وليد منير: **النص القرآني من الجملة إلىٰ العالم،** المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧.

٩- جلال الدين السيوطي: **ترتيب سور القرآن،** القاهرة، مكتبة الهلال، ١٩٨٦.

١٠- فريد الأنصاري: **سلسلة مجالس القرآن،** القاهرة، دار السلام، ٢٠٠٩.



برنامج (٣)

طريقة الشجرة القرآنية

شجرة السورة:

من الطرق النافعة للوعي بالقرآن من خلال القراءة، ما يمكن أن نسميه طريقة (شجرة السورة)، ومن مكونات الشجرة في عالم النبات يمكن أن نحدد المطلوب في مجال قراءتنا للقرآن في ضوئها، وذلك كما يلي:

١- **جذر الشجرة**: وهو الموضوع الذي عنونت به السورة، فكل اسم سورة نعتبره جذرها الذي التفَّت حوله فروع السورة وسيقانها وأوراقها، والقارئ للقرآن هنا ينبغي أن يعتني بموقع (اسم السورة)، ومعناه، وموضع ذِكره في السورة، وما قبله وما بعده (أي البَيْنَين - القَبلي والبَعدي)؛ فاسم السورة -كما له مبنًى ومعنًى- له قيمة ومدلول لا يفتأ القرآن أن يعتني بهما ليقدمه لقارئه، وكذلك موقع (اسم السورة) له دلالته وعلاقته بما قبله وما بعده.

٢- **الساق**: وهو حامل مكونات الشجرة (الأغصان والأوراق والزهور، ...) ومحور دعامة النبات عامة والشجرة بصفة خاصة، ونقصد به في السورة القرآنية عمودها الرئيس الذي افتُتِحَت به، أو الذي احتل مكانةً كبرىٰ في حديث السورة، والساق يرتبط -بلا شك- بالجذر (الاسم). فيمكن للقارئ أن يجعل من اسم السورة (جذرًا) ومن موضوعها الرئيس (ساقًا) يرتبط به.

كما يمكن للساق -أيضًا- (ساق السورة) أن يتضمن عدة موضوعات تدور حولها السورة القرآنية، فساق الشجرة في الأصل يتضمن: لحاء (داخلي

وخارجي)، وخشب (قلب - داخلي) (والنخاع).. وهكذا، أي أن الساق يُحمَل عليه كل الموضوعات التي تحدَّثَت عنها السورة وشكَّلَت مبناها.

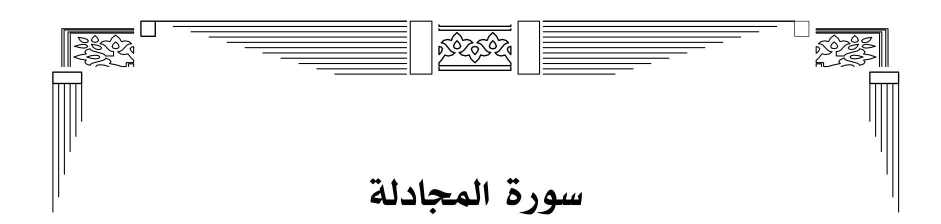
٣- **التاج**: أما التاج في الشجرة فهو الذي يحمل البراعم والزهور والثمار، وهذه نماثلها في السورة القرآنية بقِيم الهداية، فهي ثمار القرآن، والقارئ هنا عليه أن يستنبط أهم قِيم الهداية التي تتخلل حديث السورة، وموضوعاتها (إما استنباطًا مباشرًا كأن تكون السورة ذكَرَته بألفاظ صريحة، أو استنباطًا غير مباشر بما فهِمَه القارئ من معانٍ للهداية الفردية والمجتمعية).

٤- **الخلايا الأولية/ الطرفية**: هذه الخلايا في الشجرة هي التي تُكوِّن كل ما سبق (جذر، وساق، وزهور، وثمار)، وتؤدي الدور الرئيس في بناء الشجرة، وكذلك تؤدي الدور الرئيس في تماسُك مكونات الشجرة.

نماثل ذلك في السورة القرآنية بالمفاهيم الأساسية التي قامت عليها السورة القرآنية، ومثَّلَت الغذاء لكل مكونات الشجرة القرآنية، والقارئ هنا عليه أن يبحث عن تلك المفاهيم، ومجالات عملِها في نفس القارئ للقرآن (المجال العقلي - المجال القلبي - المجال السلوكي). أي أن هذه المفاهيم تمثِّل أداة التغيير القرآني في الإنسان القارئ للقرآن.

نتناول فيما يلي نماذج لتدبر القرآن بطريقة الشجرة القرآنية من خلال أربع سورٍ في جزء (قد سمع)، هم سورة المجادلة، وسورة الحشر، وسورة الممتحنة، وسورة الصف.





سورة المجادلة

بطاقة السورة:

الاسم: المجادلة/ قد سمع

عدد آياتها: (٢٢ آية)، وترتيبها (٥٨) في المصحف الشريف، وهي أول سورة في الجزء الثامن والعشرين.

أولًا: جذر السورة

جذر هذه السورة هو «المجادلة»، والمجادلة: المحادثة بين طرفين أو أكثر، وهي المحاورة أو المحادثة، وتحديدًا وقعَت تلك المجادلة (الحديث/ الحوار) الذي سجَّله الوحي بين إحدىٰ المسلمات (خولة بنت ثعلبة) والنبي ﷺ. وأكد الوحي عناية الله تعالىٰ بهذا الحديث بقوله: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ [المجادلة: ١].

مضمون الحوار/المجادلة

خولة بنت ثعلبة رضي الله عنها: سألَت النبيَّ، في قول زوجها -أوس بن الصامت- لها: أنتِ علَيَّ كظهر أمي. [وهو قول في الجاهلية كان يشار إليه بالطلاق].

ردَّ النبيُّ: «**حَرُمتِ عليه**».

خولة: راجعَت النبيَّ، بقولها: أشكو إلىٰ الله فاقتي ووحدتي ووحشتي وفراق زوجي..

رد النبي: «**حَرُمتِ عليه**».

فما زالت خولة تُراجع النبيَّ، حتىٰ نزل قوله تعالىٰ: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ [المجادلة: ١][(١)]، وما فيه من بينات وأحكام تَضبط القول والفعل في العلاقات الزوجية، وفي تأثيم الظِّهار وكفَّارته.

ثانيًا: ساق السورة

حَمَلَ ساق السورة الموضوعات التالية:

١- أحكام الظهار (الآيات ٢-٤).

٢- علم الله (الآيات ١/ ٧).

٣- الوعيد لمعاداة الله ورسوله (الآيات ٥/ ٢٠).

٤- التعريف بالمنافقين (الآية ٨).

٥- وصف المذبذبين بين الكفر والإيمان (الآيات ١٤-١٩).

٦- التذكير بالآخرة (آية ٦).

٧- آداب المجالس والتآلف بين المسلمين (آية ١١).

٨. آداب الحديث في وجود النبي (الآيات ٩/ ١٢).

٩- ضَعف سلطان الشيطان علىٰ المؤمنين (الآية ١٠).

١٠- الوعد بنصر الله لرسله (الآية ٢١).

١١- الولاء والبراء (الآيات ١٤/ ٢٢).

---

(١) أخرجه ابن ماجه، باب: الظهار (٢٠٦٣)، بلفظ: «**قَالَتْ عَائِشَةُ: تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ، وَيَخْفَىٰ عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهِيَ تَقُولُ: يا رسول الله، أَكَلَ شَبَابِي، وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّىٰ إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي، وَانْقَطَعَ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي، اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ. فَمَا بَرِحَتْ حَتَّىٰ نَزَلَ جبريل بِهَؤُلَاءِ الْآيَاتِ**: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١]»، والبيهقي في الكبرىٰ، باب: سبب نزول آية الظهار (١٥٢٤٣).

ثالثًا: التاج

يمكن أن نحدد تاج السورة، أي موضوعات الهداية التي يُحفِّز القرآن فيها الإنسان إلىٰ اتباع هديه في المجالات التالية:

١- العلاقات الزوجية من أعظم حرمات الله، ورعايتها في القول والفعل هو رعاية لتلك الحرمات.

٢- للكلمة مكانة عظيمة، وفي العلاقات الزوجية أعظم.

٣- دور الزوجين -والزوجة خاصة- في التماسك الأسري.

٤- وزن العادات بميزان الشرع ومقاصده.

٥- للنبوة آداب للتعامل في الحياة والممات.

٦- وصْل الإيمان بالعلم (وحدة الحقيقة والإيمان).

٧- اعتقاد بحضور الله الدائم في حياتنا كلها، وضرورة استحضاره في الحياة الأسرية أكثر إيمانًا.

٨- حُسن التوكل علىٰ الله في الشدائد والملمَّات.

٩- تحرِّي طاعة النبي، والحذر من مخالفَته.

١٠- التصدق.

١١- البر.

١٢- التقوىٰ.

١٣- حساب الإنسان لنفسه، قبل حساب الآخرة.

١٤- التآلف والتعاطف بين المسلمين في المواقف عامة، وفي المجالس خاصة.

١٥- الإثم يُضعِف الإيمانَ.

١٦- طهارة القلب مدخلٌ للفلاح.

رابعًا: الخلايا الأولية/الطرفية (مصادر الغذاء)

يمكن أن نشير إلىٰ أهم مكونات غذاء السورة -التي تمددَت في كل أحكامها وقِيَمِها- في العناصر التالية:

- (الألوهية)

مثَّلَت (الألوهية) مصادر غذاء سورة المجادلة، فهي السورة الوحيدة، التي لم يَخلُ في أيِّ آيةٍ منها (لفظ الجلالة: الله)، بل بعض الآيات ذُكر فيها لفظ الجلالة (الله) أكثر من مرة، أما هذا الغذاء الذي تَخلَّل كل الآيات فتضَمَّن عددًا من الصفات والأسماء التي تدخل في صميم بناء الشخصية المسلمة عامةً، وشخصية الأسرة بصفة خاصة، وهي كما يلي:

١- السميع.

٢- البصير.

٣- العفو.

٤- الغفور.

٥- الخبير.

٦- الشهيد.

٧- العليم.

٨. المتوكَّل عليه.

٩- الرافع.

١٠- الرحيم.

١١- القوي.

١٢- العزيز.

١٣- القوي.

١٤. العزيز.

إن كل صفة/اسم مما ذَكَرَته السورة الكريمة يمكن الوقوف عند عطاءاته الوجدانية والمعرفية والسلوكية، بما يُسهِم في تشكيل شخصياتنا الاجتماعية والأسرية والفردية كذلك.

- مفاهيم تربوية وتشريعية

من المفاهيم الجديرة بتوقف المسلم عندها في سورة المجادلة:

١- مفهوم الظهار.

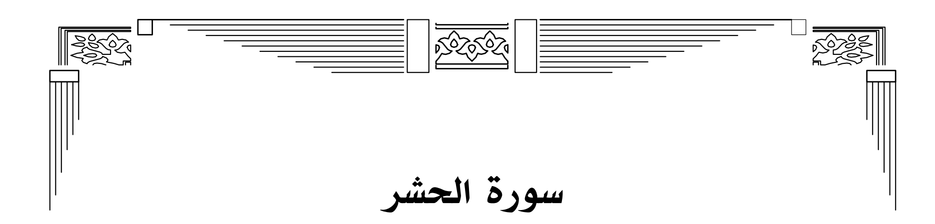
٢- مفهوم الفسح في المجالس.

٣- مفهوم المحادة لله ورسوله.

٤- مفهوم الاستماع والحوار في العلاقات الزوجية.

هذا؛ ويبقىٰ ما قدمناه مجرَّد إشاراتٍ يمكن أن تتمدد ظلالها، بل يجب أن تتمدد ظلالها بالتدبر الراشد لمكنونات تلك السورة وثمارها وزهورها.





سورة الحشر

بطاقة السورة

الاسم: الحشر، وتُسمَّىٰ كذلك: سورة النضير، لأنها نَزلَت في بني النضير.

عدد الآيات: (٢٤ آية)، وترتيبها (٥٩) في المصحف الشريف، وهي ثاني سورة في الجزء الثامن والعشرين.

الحشر:

الحشر بمعنىٰ الجمع، وهو من أسماء يوم القيامة، ويَذكر ابن العربي أن الحشر في القرآن جاء في ثلاثة معانٍ: أول وأوسط وآخِر. فالأول: إجلاء بني النضير -عن المدينة المنورة- والأوسط: إجلاء خيبر، والآخِر: حشر يوم القيامة.

أولًا: جذر السورة «الحشر»

الحشر في السورة، يُقصَد به جمْع بني النضير وإخراجهم من المدينة؛ إذ لم يستجيبوا بدعوة «الجلاء» منها في أول الأمر، فأُخرجوا بالمحاصرة في حصونهم التي خربها المسلمون عليهم بغرض إجلائهم من المدينة.. وكان حال «بني النضير» أن كانوا يخربون بيوتهم بأيديهم من أجل أن يعيدوا بناء الحصون التي خربها المسلمون. ومن هنا كان وصْف القرآن لهم: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

وقَع مكان «الحشر» في السورة وطرْد «بني النضير» من المدينة بين محورين مهمَّين، الأول: محور «الغيب»، ويتمثل في الاعتقاد بالقدرة

المطلَقة لله تعالىٰ، ومالكيته لكل الكون (السماء والأرض وما عليهما وما بينهما وما لا نعلمه)، وهذا مما يقتضيه الإيمان بطبيعة الذات الإلهية التي خلَقَت كل شيء وتَملِك كل ما خلَقَت.

أما المحور الثاني: فهو تعليلٌ من الله تعالىٰ -وهو غنيٌّ عن ذلك- لبعض فِعله مع بني «النضير»، وهو أن كَتب عليهم «الخروج» لا «الهلاك». وذلك رحمة من الله تعالىٰ أن يَخرُج من ذريتهم من يؤمن بالله، ويصحح فساد إيمانهم وسلوكهم.

ثانيًا: ساق السورة

يحمل ساق السورة «حلقات» متعددة بعضها فوق بعض، تتنوع فيها أساليب الخطاب القرآني للإنسان، هذه الحلقات هي:

١- حلقة الغيب: وقد بدأَت به السورة (آية ١) وانتهت به الآيات (٢٢-٢٤).

٢- حلقة العلاقات الاجتماعية بين المسلمين (الآيات ٧-٨-٩).

٣- حلقة الاقتصاد (الآيات ٧-٨).

٤- حلقة القِيَم: وهذه الحلقة من أبرز الحلقات في تلك السورة، واهتم الخطاب القرآني فيها بذِكر مضادات القِيم؛ وذلك لإبراز القِيم الإيجابية التي يدعو إليها المسلم، وهذه المقابلات (القِيَمية) هي:

- الحق/الباطل: (الآيات ٢/ ٤).
- الإيمان/النفاق: (الآيات ١١-١٢).
- سلامة الصدر/الغل (آية ١٠).
- الإنسان/الشيطان (آية ١٦).
- الإيثار/الشح (آية ٩).

- السابقون في الإيمان/ اللاحقون في الإيمان (آية ١٠).
- الحاضر/ المستقبل (آية ١٨)
- الجنة/ النار (آية ٢٠).

ثالثًا: التاج (الثمار والزهور)

يمكن للعقل المسلم أن يقف علىٰ تاج سورة الحشر (ثمارها وزهورها) في إدراكه للثمار التالية:

الثمرة الأولىٰ: جماعية الإسلام

الإسلام لا يكون إلا في مجتمع تتماسك فيه شبكة العلاقات الاجتماعية؛ فالإسلام ليس دينًا فرديًّا انعزاليًّا. ولهذا فإن أنشطة المسلم العبادية تظهر آثارها -كما يبين القرآن- في سلوك المسلم بين الناس، وغير ذلك يدخل في أبواب التقصير، أو النفاق، أو سوء الفهم للإسلام.

الثمرة الثانية: الله تعالىٰ

«الله» تعالىٰ قاسمٌ مشتركٌ في أنشطة المجتمع المسلم، إن قوله تعالىٰ في تقسيم الفيء ﴿فَلِلَّهِ﴾ تعني القطاع الأكبر من الناس الذين لا سند مالي لهم ولا مادي ولا اجتماعي إلا الله، ففي تقسيم الغنائم يُخصَّص الجزء الذي لله هو لهذا القطاع، فالله تعالىٰ هو المنعِم بهذا الفيء، وهو الضامن لفقراء المسلمين في حقهم فيه؛ حتىٰ لا يستطيل عليهم البعض حين غفلتِهم عن هذه الحقيقة، إن هذا القطاع الكبير يضم: اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل وكل مَن شأنُه «الاحتياج» في المجتمع.

الثمرة الثالثة: مراصد أمراض المجتمع

تعني هذه الثمرة بضرورة الفحص الدائم والمستمر لبنية المجتمع، وبناء مراصد استشعار لكل ما يضر المجتمع من: فئات أو أفكار، والوعي بمصادر

هذا الضرر، وأثره علىٰ النسيج الاجتماعي، والقيام علىٰ إصلاح هذا الضرر أو تجنُّب آثاره الضارة علىٰ المجتمع في حاضره ومستقبله، إن هذا الوعي يُمكِّن المجتمع من إدراك عوامل إعاقته، وتقليل الخسائر من وراء ما تقوم به «مصادر الضرر» بغرض تهديد كيان المجتمع.

الثمرة الرابعة: الإيمان

«الإيمان»: «لُحمة» المجتمع و«دمه»، والإيمان -كما ورد في سورة الحشر- يرادف الحب، والحب والإيمان يظهر أثرُهما في شكل شبكة العلاقات الاجتماعية بين الأفراد بعضهم البعض أو بين فئاته، ودون الحب الناتج عن الإيمان يصبح المجتمع مهدَّدًا من داخله، تستطيع أي عاصفة/ مؤامرة من أهل النفاق من أعداء المجتمع أن تطيح بقوته وتماسُكه، إن فئة «المنافقين» لا تكفُّ عن التفكير في إلحاق الأذىٰ بنسيج المجتمع، والعمل علىٰ ذلك بصورة مستمرة ودائمة. والوعي والحب عاملان يحصِّنان من هذا الأذىٰ.

الثمرة الخامسة: هرمية الحب ومستوياته

تعني هذه الثمرة بهرم «الحب» ودرجاته في المجتمع المسلم: إن القرآن يعلم أنه يتعامل مع النفس الإنسانية، ذات التفرد والاختلاف، لا سيما ما يتعلق بالمشاعر والوجدان، ومِن ثَم عدَّدَ صور الحب اللازمة بين الجماعة المسلمة في شكل هرمي، لكل مستوىٰ فيه من الضرورة والحاجة وظيفةٌ في تماسُك المجتمع وتمتين نسيجه.

وجاءت **هرمية الحب** بين المؤمنين -في تلك السورة المباركة- تشير إلىٰ المستويات الأربعة التالية:

- المستوىٰ الأول: «سلامة الصدر» ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً﴾، وهو المستوىٰ الضروري، والذي لا يمكن الاستغناء عنه للمجتمع المسلم؛ فسلامة الصدر ينبغي أن تكون ذلك القاسم المشترك بين كل المجتمع أفراده

وفئاته. لا يمكن لمجتمعٍ أن يقيم علاقاتٍ اجتماعيةً -أو أي علاقاتٍ من أي نوعٍ- دون تَوفُّر هذا الركن الأعظم في النفس الإنسانية بين جميع المشاركين في تكوين المجتمع.

- المستوىٰ الثاني: الإيثار وهو تفضيل الغير علىٰ النفس وحظوظها الدنيوية رغبةً في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر علىٰ المشقة، وقد يكون الإيثار عن غِنىٰ كما في هذا المستوىٰ المتقدم، أي أن للمؤْثِر ما يمكن أن يتحصل به ثانيةً علىٰ ما آثَر به أخاه أو مجتمعه، ولا يتأثر بذلك إلا قليلًا.

- المستوىٰ الثالث: الإيثار عن الحاجة «الخصاصة»، أي عن الفقر الشديد والاحتياج «للمؤْثَر» به، وذلك أعلىٰ مستويات «الحب المؤمن» - أي الذي يرتكز الإيمان أساسًا له.

- المستوىٰ الرابع: الدعاء بالغيب لكل من تربطهم بنا صلة الإيمان، سواء من يحدُّهم معنا حدودٌ زمنيةٌ ومكانيةٌ، أو من تتجاوز بهم الحدود زمانًا ومكانًا.

الثمرة السادسة: الحب قوة

إن لُحمة المجتمع ودمه القائمتين علىٰ الحب بهذه المعاني السابقة تمثِّل سلاحًا فاعلًا ضد من يحاولون تخريب المجتمع وتفكيكه ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِۚ﴾.

الثمرة السابعة: المحاسبة

تَدفَع «سورة الحشر» المؤمنَ أن يقوم ببناء خارطة إيمان ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ﴾، فحياة المسلم ليست عشوائيةً، وإنما هو صاحب رسالة وغاية في الحياة، يظل يؤديها حتىٰ يصل المؤمن إلىٰ غايته الكبرىٰ، الله تعالىٰ «إليه المصير».

الثمرة الثامنة: الزمن وحصيلة العمل

دفَع الوحي -في هذه السورة الكريمة- الإنسان إلىٰ تصويب نظرتِه ناحية «الزمن» ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾، فالزمن ليس وحداتٍ متقاطعةً متنافرةً يَطرُد بعضها بعضًا، بل إن الزمن وحدةٌ واحدةٌ ذات حلقات ثلاثٍ مترابطة هي: (الحاضر) الذي يشكِّل بطبيعته (الماضي)، ثم المستقبل الذي هو حصيلة الماضي والحاضر. يَذكُر الوحي كلمة ﴿وَلْتَنظُرْ﴾، والنظر هنا يتطلب (المستقبل)، ولكنه في حقيقته يحفِّز إلىٰ تطوير الواقع -أي الحاضر- الذي يشكِّل (الماضي والمستقبل ﴿لِغَدٍ﴾ معًا)، وكأن المسلم في حالةٍ مراوِحةٍ بين أزمنة ثلاثة: الماضي (للعبرة) والحاضر (للتحسين) والمستقبل (للتغيير).. وبذلك -أيضًا- يظل قلب المسلم منشغلًا بما فعَل وما يَفعل وما سيَفعل.. فالمسلم في الكون ليس بكاسلٍ ولا بليدٍ.. بل هو مخلوقٌ ذو أشواقٍ متَّقِدةٍ، يظل في حركته وسكونه أو ركونه مضادًّا لقول الوحي: ﴿وَلْتَنظُرْ﴾.. وبذلك -أيضًا- تكون (المجاهَدة) هي وسيلة ﴿وَلْتَنظُرْ﴾ من أجل السير علىٰ طريق الهداية.

الثمرة التاسعة: القرآن

مما يأتي في ثمار سورة «الحشر» -أيضًا- ما تُذكِّر به المسلم: أن القرآن هو أعظمُ مَعِين للمجتمع، يستمد منه عناصر وجوده وبقائه ونمائه وحيويته، وتَطلب السورة من المسلم أن يكون علىٰ ثلاثة أحوال مع القرآن، مجتمعة لا منفصلة، متكاملة لا متنافرة، متواصلة لا متقطعة، هذه الأحوال هي:

أ- الخشوع بالقلب والجوارح كافةً (الباطنة والظاهرة).

ب- الاعتبار من الأحوال وتاريخ الأمم والأفراد التي يَذكرها القرآن.

ج- التفكر الدائم في أحكامه وقِيَمه وآدابه وأخلاقه، وهذا يكون أيضًا علىٰ دربين: الأول: الاستنباط لهذه التضمينات في دقائقها ومجالاتها. والثاني: تنزيل قِيَم تلك التضمينات في الواقع الفردي والاجتماعي والإنساني.

الثمرة العاشرة: الفلاح

مفهوم «الفلاح» الذي تَدفع إليه تلك السورة الكريمة، هو ذلك الفلاح الجماعي لا الفردي، فلا يستطيع الفرد أن يعمل صالحًا في فراغٍ، ولا يستطيع ممارسة نشاطه الاستخلافي بالفوز إلا في جماعةٍ، كما أن الفرد لا يفلح إلا في ظل فلاح الجماعة. ومِن ثَم جاء خِطاب القرآن الخاص بالفلاح في صورة الجَمع دائمًا، كما في تلك السورة الكريمة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾.

الثمرة الحادية عشرة: النظرة الإيمانية للمال

تأتي «سورة الحشر» كذلك بمفهومٍ ماديٍّ للحياة الاقتصادية، هذا المفهوم هو «التداولية»، وجاء في موضوع «المال» الذي يشكِّل عصَب النشاط المادي للمجتمع، إلا أنه -أي المال- عندما يختلط بالإيمان يصبح عاملًا من عوامل تماسُك الجماعة وتحسينها وتنميتها وترقيتها، فـ«المال المؤمن» ركيزته أنه وسيلةٌ للنشاط المادي بين الجماعة الإنسانية لتحقيق التنمية المادية والترقية الاجتماعية، وليس غايةً يسعىٰ الجميع إلىٰ تحصيله وجَمعِه من أجل اكتنازه أو الاستمتاع الفردي به، وإنما وسيلةٌ لنماء حركة المجتمع وتطويره وتحسينه، وفي ضوء هذا المعنىٰ «المال المؤمن» نشير إلىٰ أن نظرة القرآن إلىٰ المال تتحدد في جانبين:

الأولىٰ: نظرة إيمانية وهي -كما ذكرنا- الاستخلاف في المال ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ﴾، وهي نقيض لمقولة قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾.

الثانية: نظرة عملية مجتمعية تقوم علىٰ مبدأ «التداول» بين فئات المجتمع، والتي علَّلها بعدم اكتناز المال في يد فئةٍ من فئات المجتمع، فيكونون «دُولة»؛ أي الأغنياء هم الذين يتداولون المال، وقد أشارت دراساتٌ عديدةٌ علىٰ خطورة تركيز الثروات في يد فئةٍ واحدةٍ من فئات المجتمع، وزيادة

قاعدة المجتمع من الفقراء والمساكين وأصحاب الاحتياج، وهو الأمر الذي يتطلب معه وعي المجتمع أفرادًا وجماعاتٍ ومؤسساتٍ وتشريعاتٍ بضرورة (إصلاح المال) القائم في أيدي قلةٍ وحرمان الكثرة منه.

الثمرة الثانية عشرة: التوقف في أمر المال

إن تَغيُّر هذين المبدأين: «الاستخلاف» و«التداول» في النظرة إلىٰ المال -في المجتمع الإنساني- أدىٰ إلىٰ مشاكل اقتصادية واجتماعية كبيرة، أبرزها: زيادة نِسب البطالة بزيادة اكتناز المال في أيدي «دُولة» من فئات المجتمع، انتشار جرائم السرقات، وزيادة الأعمال غير المشروعة لتحصيل القوت اليومي، أو الوقوع في الحرمان والبؤس الإنساني. كما أن جرائم إنفاق المال عند فئة «المترفين» في مَظهرها اللاأخلاقي تَنشر ظلالها علىٰ العالم الإنساني المعاصر وعبر التاريخ.

الثمرة الثالثة عشرة: مجالات التداولية للمال

اعتنىٰ القرآن بمبدأ «توزيع» المال في الدورات الحياتية للأفراد، ومن أبواب هذا المبدأ:

- الميراث.
- الزكاة.
- الصدقات.
- الكفارات.

● **ثم تحريم:**

- الربا.
- الاحتكار.
- الاكتناز.

رابعًا: الخلايا الطرفية الأولية (مصادر الغذاء)

أما مصادر الغذاء في «سورة الحشر»، تلك التي قامت بمد عناصر السورة ومكوناتها بأشكال الغذاء المختلفة، فيمكن الوقوف فيها عند مركزية مهمة، وهي «فلسفة الاتصال» الفريد بين عالَمي الغيب والشهود وما تتركه من أثرٍ في قِيم الأفراد والمجتمع.

إن حياة المؤمن عمادها ذلك التشابك الفريد بين عالم الغيب وعالم الحركة والشهود، وإن ذلك الاعتقاد بين الاتصال العميق بين العالَمين هو الذي يميِّز اعتقاد المجتمع المسلم: فردًا وجماعةً، فلو اعتقَد بأحدهما وكفَر بالآخَر كان ذلك اختلالًا بيِّنًا في الاعتقاد، وكذلك لو آمَن بهما منفصلين غير متواصلين كان ذلك خللًا أيضًا.

لقد تخلَّل في كل خلايا «سورة الحشر» ذلك الاتصال بين العالَمين من الآية الأولىٰ في الافتتاح بصيغة الماضي بقوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ...﴾، ثم أُحكِمَت تلك الحلقة في نهاية الآيات بنفس الخطاب ولكن بالاستمرار ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ...﴾، .. وما بين الآيتين حياة المسلم الفردية والجماعية في حركتِها الداخلية والخارجية، فهي صورة مكتملة -من حيث الزمن والمعنىٰ- لحركة المسلم في الحياة التي يَبدؤها كل يومٍ بتجديد الإيمان، ويستمر ذلك الإيمان فاعلًا في حركتِه اليومية والتاريخية، من خلال الالتزام بقِيَم الحركة التي حدَّدَها ذلك الإيمان حتىٰ نهاية تلك الحياة علىٰ منهج القرآن والنبوة الراشدة.

ومِن قِيم الحركة التي تغذي موضوعات السورة ما يلي:

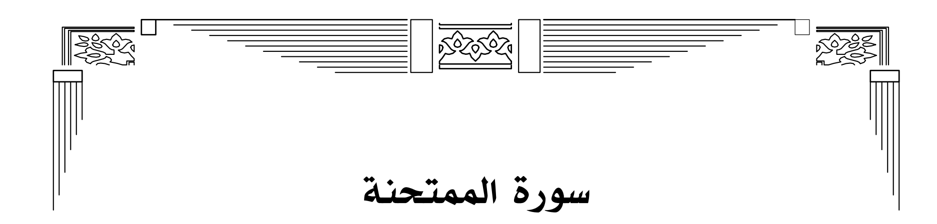
- ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾.
- ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ... ۝٩﴾.
- ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ... ۝٧﴾.

- ﴿فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ . . . ﴿٥﴾﴾.
- ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ. . . ﴿٧﴾﴾.
- ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ. . . ﴿٧﴾﴾.
- ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا. . . ﴿١٠﴾﴾.
- ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

من جوانب اتصال المسلم في عالم الشهادة بعالم الغيب -أيضًا- ما تَضمَّنَته «سورة الحشر» من ذِكرٍ لأسماء الله وصفاته، والأسماء والصفات التي ذُكرَت في السورة هي: العزيز، الحكيم، القدير، العالم بالغيب والشهادة، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، الجبار، المتكبر، المتنزه عن كل نقصٍ وقول بشرٍ، الرؤوف، رب العالمين.

إن المسلم لا ينبغي أن يغيب عنه الوعي بهذه الأسماء والصفات لله تعالىٰ، فهي جزءٌ رئيسٌ من اعتقاده في الذات الإلهية التي يتوجه إليها بالعبادة الظاهرة والباطنة، ويَستمد منها العون بكل أشكاله، ويتيقن بحقيقة وعدِها ووعيدها، وجدارة هذه الذات بالعبودية (ألوهية وربوبية).

إن المسلم لا ينبغي له أن يتجاوز تأمُّل هذه الصفات والأسماء، وهو يحتاجها كاعتقادٍ راسخٍ في حركتِه اليومية، وفي تأدية رسالته الدنيوية والأخروية علىٰ السواء. إن تَيقُّن الإنسان برحمة الله وكونه رؤوفًا به يجعله يتجاوز العثرات النفسية التي تواجهه جرَّاء الزلل المعتاد من النفس الإنسانية، وتَيقُّن الإنسان بعزة الله وجبروته وتَكبُّره وهَيمَنتِه يجعل الإنسان ينظر بمنظار الصَّغار لكل متكبر ومتجبر علىٰ الأرض دون الله، إن التيقن بهذه الأسماء والصفات هو الذي لا يجعل الإنسان مستذَلًّا في الدنيا لأيِّ أحدٍ، لأنه يَعبد إلهًا يمتلك كل صفات العزة والعظمة، وهو ما ينبغي أن يكون عليه معبود ذلك الإله في الأرض.



سورة الممتحنة

بطاقة السورة:

اسم السورة: الممتحنة (بكسر الحاء) و(فتحها أيضًا)، ولكلٍّ معنىٰ: فالممتحِنة (بكسر الحاء) عامةٌ تخص كل المؤمنات اللواتي بايعْنَ النبيَّ ﷺ حين اتفاق الحديبية، فهذه السورة امتحانٌ لهنَّ كلهنَّ، أما الممتحَنة (بفتح الحاء) فإنها تخص مَن نزَلَت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بنت أبي معيط.

وتُسمَّىٰ كذلك **(المختبرة)** فهي موضوعٌ لاختبار الإيمان، بما تتضمنه من أصول وبنود رئيسة في إيمان المسلمين والمسلمات علىٰ السواء..

عدد الآيات: (١٣ آية)، ترتيبها (٦٠) في المصحف الشريف، وهي السورة الثالثة في الجزء الثامن والعشرين.

أولًا: جذر السورة (المعنىٰ والمبنىٰ)

يمكن أن نقف علىٰ مجموعة من التأملات في جذر سورة «الممتحنة» نوجزها فيما يلي:

١- جذر السورة الذي قامت عليه، وتأسَّسَت من أجلِه هو موضوع اختبار الذين يرغبون في الانتقال من مرحلة الكفر إلىٰ مرحلة الإيمان، بوضع بنودٍ لهذا الاختبار، جاء علىٰ سبيل التعين هنا للنساء -بحسب اتفاق الحديبية الذي نص علىٰ أنه علىٰ المسلمين أن يردوا مَن يأتي إليهم (يريد الإسلام) إلىٰ قريش، ولا ترد قريشٌ مَن يأتي إليها من الرجال من المسلمين (إشارة إلىٰ خروجه من الإسلام)، بينما لم ينص ذلك الاتفاق علىٰ النساء- فكان للنساء نصيبٌ في هذا التخصيص في تلك السورة؛ لأنهن أبدوا رغبتهن في الدخول في الإسلام في ظل هذا الاتفاق المجحِف من وجهة نظر كثير من المسلمين.

٢- جاءت بنود الامتحان للنساء القادمات من ناحية المشركين بغرض التأكد من الإيمان الخالص لله تعالىٰ والرسول، وليس لغرضٍ ما في نفس المرأة، قال ابن عباس: "كانت المِحْنَة -أي المرأة القادمة من قريش إلىٰ المسلمين- تُستحلَف بالله أنها ما خرجَت من بُغض زوجها، ولا رغبةً من أرضٍ إلىٰ أرضٍ، ولا التماس دنيا، ولا عشقًا لرجلٍ من المسلمين، بل حبًّا لله ورسوله. فإن حلَفَت بالله علىٰ ذلك أعطىٰ النبيُّ ﷺ زوْجَها مهرَها وما أنفَق عليها ولم يردها".

أما طلب الامتحان فذُكِر في الآية (٩) ﴿فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ﴾، بينما ذُكرَت بنود الامتحان في نهاية السورة الآية (١٢) وقبل الآية الأخيرة مباشرةً.

٣- جاء جذر السورة -كما يظهر من ترتيب الآيات- (متأخرًا) إلىٰ نهاية السورة، يتقدمه كل أسباب «الاختبار» وضرورته الاجتماعية والثقافية، والتي يمكن تلخيصها في: بناء الهوية الإيمانية للمجتمع الجديد، فكان مسير الآيات كلها في تبيين حدود الإيمان ونواقضه للمجتمع الجديد، الذي ينبغي أن ينبني علىٰ التمايز والتباين مع كل عناصر المجتمع القديم: في التصورات، والقيم، والمفاهيم.

٤- في ضوء ذلك جاء جذر السورة يَضرب في أعماق البناء الجديد لذلك الإنسان الجديد، الذي اختار الإيمان، ونبذ الكفر والشرك والجاهلية بكل ما يحملون من أُطرٍ ثقافيةٍ واجتماعيةٍ يحملها الاعتقاد بالوثنية والشرك، والرغبة الحرة في الانتقال إلىٰ إطارٍ ثقافيٍّ واجتماعيٍّ يحمله اعتقاد «التوحيد» ومبدؤه، أي توحيد الخالق، وتوحيد القِيم، والمفاهيم والتصورات التي تنشأ عنه يستظل بها الفرد والجماعة والمجتمع كله.

٥- جاء جذر السورة -كذلك- يَضرب بأعماقه في طبيعة علاقات المجتمع الجديد، وحدودها، ومرتكزات التعامل فيها، وطبيعة شبكة العلاقات وتكوينها؛ بغرض التخلص من كل عناصر الاجتماع الجاهلي الذي جَشِم علىٰ أنفاس الإنسان، وأضاع عديدًا من قِيَمه الإنسانية وفطرتِه.

٦- إن جذر السورة في ظاهره «الامتحان»، ولكن حقيقته وجوهره فِعل «التغيير» النفسي الجذري لأسس الإنسان الجديد، والمجتمع الذي سوف يشيِّد حضارةً تتابعها الإنسانية فيما بعد قرونٍ عديدةٍ، ومبادئ خالدة تتسم بالأصالة الإنسانية إلىٰ يوم الدين.

٧- إن جذر السورة «الامتحان» وبنوده -والذي جاء آخر السورة- لو جاء في مقدمة السورة وصدرها ما استطعنا أن نفهم غاياته ومراميه، ونقدره حقَّ قدرِه، ولظَنَنَّا أنه تكلُّف من القرآن وتشديدٌ علىٰ الإنسان، الذي يرغب في الانتقال من مرحلة الكفر والشرك إلىٰ الإيمان والتوحيد. إن القرآن الكريم يهيئ الإنسان بمنطق العقل والبرهان لا بمنطق القَسر والجَبر؛ للتعرف علىٰ أحكامه، وما يحمله من قِيم وتصورات تَضرب في عُمقها في مسألة «التغيير» المنشود.

ثانيًا: ساق السورة

يحمل ساق سورة «الممتحنة» حلقاتٍ متتابعةً، منسجمةً في البناء والمعنىٰ، حتىٰ تصل إلىٰ غاية السورة الرئيسة، وهو تحقيق «الفوز» و«الفلاح» في الامتحان الإيماني الذي غُرسَت من أجله بذورُ السورة الكريمة، وهذه الحلقات التي يحملها الساق هي:

١- حلقة بناء الانتماء الإسلامي، وتحديد الداخلين فيه والخارجين منه (الآيات ١-٣/ ١٣). وتهتم هذه الحلقة ببناء الهوية للمجتمع الجديد، وتحديد إجابة مَن نحن؟

٢- حلقة النماذج التاريخية لبناء الانتماء الإسلامي في المجتمع الجديد، وأصوله الراشدة (آية ٤). وهذا الترميز من الأهمية بمكان ليوضح للمؤمنين إمكانية الفعل والأمر المطلوبين، باعتبارهما تجسُّدًا تاريخيًّا وعلىٰ أفضل المثل والنماذج. والنموذج الذي تم الاستشهاد به هنا نموذج أبي الأنبياء ﵇، ورِحلته الشاقة في تجسيد مفهوم «الإسلام» الذي كان أوَّلَ واصفٍ به الموحِّدِين لله تعالىٰ ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

٣- حلقة الدعاء والارتباط بالغيب (آية ٥). وهذه الحلقة استمرار لتأكيد مركزية اتصال المسلم -فردًا وجماعةً- بالله تعالىٰ. وهذه المركزية -الغيب- لا يمكنها أن تَغيب عن حياة الجماعة المسلمة؛ لأن غيابها يُفقِد تلك الجماعة الاسم الذي سُميَت به (المسلمون).

٤- بنود الانتماء الإيماني وأصوله (الآيات ٩-١٠/١٢). لا عقد بلا شروطٍ. وهذه الحلقة تبيِّن أصول الانتماء الإيماني، الذي هو عقدٌ بين الإنسان وبين الله تعالىٰ. سطَر بنودَه العليمُ والخالق للمخلوق من أجل ضمان استقامته لنفسه ولغيره وللكون كله، فهو عقدٌ عنوانه «سلامة العمران وصحته».

٥- حلقة المفاهيم (البر، القسط ٨، الموالاة، البراءة ٩، السلام ٨). تُعَد هذه المفاهيم التي تحملها الحلقة الخامسة في ساق سورة الممتحنة، مما لا يمكن لأي مجتمع أن يستغنىٰ عن محدداته، ورغم كونها مفاهيم تشكِّل التصورات الرئيسة للمجتمع الجديد، إلا أنها في ذات الوقت تمثِّل إجاباتٍ وجوديةً لهذا المجتمع الناشئ. مفادها: ما البر؟ ولمن؟ ما القسط؟ ولمن؟ ما الموالاة؟ ولمن؟ ما البراءة؟ وممن؟ ما السلام؟ ومع مَن؟

ثالثًا: التاج (الثمار والزهور)

يمكن أن نقف علىٰ أهم الثمار والزهور في «سورة الممتحنة» فيما يلي:

الثمرة الأولىٰ: الابتلاء (الاختبار)

إن امتحان الإيمان للمسلمين أمرٌ ضروريٌّ، لا تمر حياة الإنسان دون أن يؤديه، وقد يكون الاختبار بالخير، أو بالشر ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: **٣٥**]؛ فالامتحان اختبارٌ عمليٌّ لمبدأ الإيمان، وصَهرٌ له، وبيانٌ لصحة الاعتقاد، ودليلٌ علىٰ حرية الإنسان، الذي بإمكانه أن ينحاز إما للحق الذي يعتقده أو للباطل الذي يناقضه مبدأ الإيمان.

الثمرة الثانية: وطن المسلم

إن حدود وطن المسلم ليس العرق ولا التراب، وإنما وطنه الإيمان، وهذا أوسعُ وأعظمُ قِيمةً من قِيمة العرق وقِيمة التراب، فرحابة الإيمان أوسعُ من رحابة النَّسب ورحابة الأرض.

الثمرة الثالثة: مصدر الحب

إن الله هو مصدر «الحب» و«المودة» وينبوعهما في مجتمع المؤمنين. والحقيقة أن الحب الذي مصدره الله لا ينقطع، ولا ينخفض، بل يستمر، ويتصل فيمن ربَطَهم به عقدُ الحب في الله. وهذا علىٰ خلاف الحب الذي يكون مصدره دنيويًّا، فهو معرَّضٌ للانقطاع والزوال، بل والانقلاب إلىٰ كُرهٍ وبُغضٍ.

الثمرة الثالثة: رابطة الإيمان

إن روابط الآباء والأبناء والأرحام عامةً، رغم قداستها في الفطرة الإنسانية -بل وفي التشريع ذاته- إلا أنها حين تتعارض مع الإيمان، فإن الإيمان لا بد وأن يرجح بهم. إن قلب المؤمن لا بد وأن يُسلِم كاملًا لله تعالىٰ. لا دخل فيه لمن ينازع الإيمان به والتسليم له، حتىٰ لو كانت تلك الروابط الدنيوية عميقة الأثر والارتباط والتعلق.

الثمرة الرابعة: مبدأ السلام ومبدأ القوة

المجتمع المسلم يقوم في أساسه علىٰ مبدأ السلام مع الآخرين (المختلفين عنه في الدين)، بل علىٰ قِيمتَين أعلىٰ منه وهما: «البر، والقسط»؛ فهذا هو الأساس الذي يقوم عليه مجتمع الإيمان، إلا أن مبدأ «القوة» كذلك من الأهمية بمكان ويظهر الحاجة إليه حال تعرض إيمان المجتمع أو المؤمنين إلىٰ محاولات المهاجمة من قِبل أعدائه؛ فهنا يتحول السلام إلىٰ مدافَعةٍ بغرض

البقاء علىٰ الإيمان ومجتمع المؤمنين قويًّا عزيزًا. ولا مجال لإظهار الضعف أو الاستضعاف لمن يقاتِل «الدينَ» و«المؤمنين».

الثمرة الرابعة: مكانة النساء

تَشغل المرأة مكانةً مميَّزةً في القرآن، وهذه السورة سُميَت باسمها، كما كان هناك سورة «النساء»، وسورة «مريم»، فضلًا عن الآيات التي تحدَّثَت عن مواقف للنساء المؤمنات، وهو ما تَوقَّف القرآن عنده كثيرًا، وللمؤمن أيضًا أن يتوقف عنده.

إن توجيه السورة للنساء بقوله: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أمرٌ له عظَمتُه التي ينبغي أن يفتخر بها النساء، وقد وجه الله تعالىٰ -في ذات الوقت- النبوة أن تجعل من تعاليمها وإرشاداتها ما هو خاص بهن في أحوالهن وشأنهن، وهذا تعظيم لهن يجب الالتفات إليه، والبحث عنه في مواقف النبوة تجاههن وما ورثناه من أحاديث متتابعة ومتواترة بشأنهن.

الثمرة الخامسة: بنود الإيمان

إن بنود الإيمان التي ذكَرَتها السورة هي المحرمات/المنهيات لكل المسلمين وليس مجتمع النساء فقط -وإن كانت نزلت في النساء وبعضها يخصهن- ومفاد هذه البنود ما يلي:

- تحريم الشرك.
- تحريم السرقة.
- تحريم الزنا.
- تحريم افتراء الولد.
- تحريم معصية النبي في المعروف.

إن من يتجنب هذه المنهيات/المحرمات من المسلمين والمسلمات فقد غلب خيرُه شرَّه، ويسعىٰ في باقي التحسينات الإيمانية والكماليات إلىٰ تمام الإيمان.

الثمرة السادسة: الأمل

الأمل قِيمة كبرىٰ للمجتمع المسلم: من المفارقات بين المجتمع المسلم ومجتمع المشركين والكافرين قيمةُ «الأمل»، وهي نقيض «اليأس» الذي عليه مجتمع غير المؤمنين؛ فعمل المجتمع المسلم يرتبط بالدنيا والآخرة، بينما عمل غير المؤمنين يرتبط بالدنيا فقط، وهذا يعني أن اتصال المؤمن بالحياة أطوَل وأعمَق أثرًا من اتصال الكافر بها؛ حيث يمتد اتصال المؤمن بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، بينما اتصال غير المؤمن بالحياة الدنيا فقط.

رابعًا: الخلايا الأولية (مصادر غذاء السورة)

يمكن أن نقف علىٰ عنصرين من عناصر الغذاء يمثلان العناصر الأساسية للسورة:

الأول: عنصر «الإيمان»: إن غذاء «سورة الممتحنة» لكافة عناصرها ومكوناتها -والذي يسقيها من جذورها إلىٰ الساق، إلىٰ التاج والثمار والزهور- هو «الميزان» الذي ينبغي أن يزن به المسلم كل أموره في الحياة الدنيا، من أجل الفلاح والفوز في الآخرة. وهذا الميزان عصارته «الإيمان»، وفحواه «العدالة»، وقِيمُه «البر والقسط».

والموزون به تعيينًا في هذه السورة:

- علاقات المحبة والمودة.
- العلاقات مع الآخر (غير المسلم).
- علاقات الرحم والأولاد.

الثاني: عنصر الامتثال للأمر والنهي: وقد وردت (لا) الكافة عن العمل في السورة (١٣) مرة بنسبة ١٠٠٪ من السورة، وكأن السورة جاءت دستورًا للنهي والكف والأمر في هذه الحدود الوجدانية والاجتماعية والنفسية للمسلم، أما مجالات عمل (لا) الكافة والآمرة فجاءت في الموضوعات التالية.

١- المودة.

٢- المعاداة.

٣- البغضاء.

٤- الموالاة.

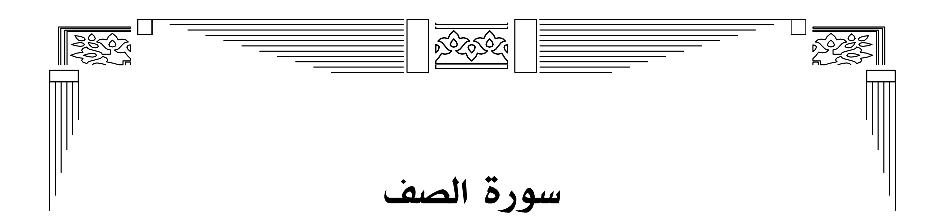
٥- البراءة.

٦- البر.

٧- القسط.

٨. الاستغفار.

.. وهذه المجالات مما ينبغي أن يتوقف عنده المسلم بعناية، ويوجِّه إليه نظره ورعايته؛ لأنها تميِّز للمسلم مواقفَه في المجالات الوجدانية والاجتماعية من المنظور العقدي، وهذه المجالات هي أنشطته التي يتحرك فيها بصورةٍ دائمةٍ ودائبةٍ، ولا ينبغي أن يتصرف فيها علىٰ أساسٍ من العشوائية أو الوراثة المخلَّة، بل ينبغي أن يكون منتبهًا لأمرِ معتقَدِه ومسيره في الحياة.



سورة الصف

بطاقة السورة

اسم السورة: الصف، وتُسمَّىٰ أيضًا: الحواريين (أي خواص صحبة الرسل)

عدد الآيات: (١٤ آية)، ترتيبها (٦١) في المصحف الشريف، وهي السورة الرابعة في الجزء الثامن والعشرين.

أولًا: جذر السورة

جذر السورة هو سمةٌ من سمات البناء الاجتماعي وهو «الصف»، أي التراص بشكلٍ تتضامن فيه مكونات البناء، علىٰ اختلاف تلك المكونات في الحجم والتفاصيل. فالصف لغةً: أن تجعل الشيء علىٰ خطٍّ مستوٍ، كالناس والأشجار ونحو ذلك. ومنه أيضًا: رَصَصْتُ البِنَاءَ.. إذا لاءَمتُ بينه وقارَبتُ حتىٰ يصير كقطعةٍ واحدةٍ.

جذر «سورة الصف» يسير في توافقٍ تامٍّ مع بقية الجذور في هذا الجزء (قد سمع)؛ إذ ينشغل -كما سنبين في نهاية التأملات- بطبيعة المجتمع، ومكوناته، والعلاقات البينية (الفردية) والمبادئ الحاكمة، وشكل النظم الاجتماعية السائدة، وهكذا.. مما يتطلبه البناء الاجتماعي للمجتمع الجديد.

فالصف يناقض: الاعوجاج، والخروج، والشذوذ عن شكل البناء العام، والصف من ناحية أخرىٰ يرادف: التضامن، والتضافر، والانسجام، والوئام، والوحدة، كما أنه لا ينفي التنوع والاختلاف، ولكنه يُعلِي شعار (التنوع في الوحدة) و(الكل في واحد).

ثانيًا: ساق السورة:

يحمل ساق السورة حلقاتٍ متعددةً في مبنىٰ الصف ومعناه، أهم تلك الحلقات:

١- حلقة التنزيه للخالق الذي يرتبط به المجتمع الجديد (آية ١).

٢- حلقة ذم الفصل بين القول والعمل (الآيات ٢/٣).

٣- حلقة البنيان المرصوص (آية ٤).

٤- حلقة وحدة المنهج الإلهي واتصاله من المنشأ (الخَلق) حتىٰ المصير (يوم الدين) (الآيات ٥/٦/٩/١٤).

٥- حلقة بناء المفاهيم للمجتمع الجديد: (التجارة الرابحة) (الآيات ١٠/١١/١٢).

ثالثًا: التاج (الثمار والزهور)

يمكن أن نقف علىٰ أهم الثمار والزهور في «سورة الصف» فيما يلي:

الثمرة الأولىٰ: البنيان المرصوص

تُقدِّم «سورة الصف» المفهوم الذي اختاره الله تعالىٰ لمجتمع المسلمين، وهو مجتمع «البنيان المرصوص» المتصاف بعضه ببعض، إن شبكة العلاقات الاجتماعية التي تتشكل في هذا النوع من المجتمع تختلف فيها طبيعة «لُحمة» العلاقات بين عناصر هذا البنيان، فيكون الرباط الروحي هو جذوة هذا الاتصال الأفقي بين عناصر البيان، ويؤدي -أي الرباط الروحي- دور المادة التي تلتحم فيها مكونات البناء علىٰ اختلافهم وتنوُّعِهم بعضهم البعض.

إن هذا الشرط في التكوين -الرباط الروحي- كان الشرارة لانطلاق الحضارة الإسلامية التي قادت الإنسانية إلىٰ الهدايات العقدية والاجتماعية والفكرية، وقدَّمَتها للإنسانية في صورة مبادئ نظرية، ومجسدات تطبيقية وعملية، ونماذج تاريخية وحقيقية.

كما وفَّرَ (الرباط الروحي) لمجتمع (البنيان المرصوص) الشروط النفسية والوجدانية اللازمة لتفعيل جذوة الطاقة النفسية، وشحذِ الطاقات الفكرية والاجتماعية نحو تحقيق غاية العمران الأخلاقي، وتحقيق المشيئة الإلهية علىٰ الأرض، وذلك بتضمين (هذا الرباط الروحي) في علاقات العوالم المختلفة (الأفكار والأشياء والأشخاص)، وساعَد كذلك في تحويل المبادئ النظرية إلىٰ واقع تطبيقي.

اكتشَف الفرد -في مجتمع البنيان المرصوص- من خلال الارتباط الروحي (الإيمان) حقيقة نفسه، وحقيقة المجتمع، وحقيقة فكرة التغيير الشامل للإنسان نحو الهداية بمفهومه العقدي والمعرفي والاجتماعي، ومِن ثَم أصبح هذا الفرد -في هذا المجتمع- يرغب في التعاون المؤثر في تشغيل هذه الحقائق في الواقع الاجتماعي. إن استقراءً بسيطًا لِسَير الرعيل الأول من المؤمنين والصحابة والتابعين الذين حملوا الفكرة بحق يُلاحَظ معه كيف كان هذا التحول في حملِ مسؤولية الهدايات للناس أجمعين.

تأمل حضاري في «مجتمع البنيان المرصوص»:

نشير هنا إلىٰ تعليق مالك بن نبي حول طبيعة المجتمع الإسلامي «مجتمع البنيان المرصوص» وطبيعة العلاقات، وأهميتها في بناء مجتمع الرسالة والحضارة، يقول في ذلك: "... إن فاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات، أي أننا لا يمكن أن نتصور عملًا متجانسًا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية، وكلما كانت شبكة العلاقات أَوْثَق كان العمل فعالًا ومؤثرًا". ويطرح هنا منهجية للمعالجة الفنية والقِيَمية للمجتمع الإسلامي القائم، تتحدد منهجية هذه المعالجة في استعادة قِيمتَين: **الأولىٰ**: خاصة بشبكة العلاقات الاجتماعية/الثقافية التي لا يمكن لمجتمعٍ ما أن يؤدي نشاطه المشترك بغيرها، والتي تؤلف عناصره المختلفة الزمنية، والنفسية.. **والثانية**: القِيمة الثقافية لهذه العلاقات التي يمثلها القانون الخلقي والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع.

يَعتبر ابن نبي شبكة العلاقات الاجتماعية مؤشرًا لنمو المجتمع؛ لأن تأسيس شبكة العلاقات واكتمالها هو أول عملٍ يؤديه المجتمع في طريق تغيير نفسه، وعلىٰ هذا يقرر أن تأسيس شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده.

وتنشأ شبكة العلاقات بفضل العلاقة الروحية بين الإنسان والله، والتي تربط بدورها بين الإنسان وأخيه الإنسان، وميلاد هذه العلاقة يَظهر في صورة القِيمة الأخلاقية؛ وعلىٰ هذا يمكننا أن ننظر من الوجهة التاريخية علىٰ أنها حدثٌ، ومن الوجهة الكونية علىٰ أنها عنوانٌ لحركة تطوُّرٍ اجتماعيٍّ واحدٍ».

وهذا كان شكل المجتمع الإسلامي الأول (مجتمع البنيان المرصوص)؛ حيث يميِّز ابن نبي في شكل المجتمعات بين نوعين، يقوم أحدهما علىٰ فكرة الطوابق المتعددة، ومجتمعات يقوم بناؤها علىٰ فكرة «الحجر الواحد» أو «الطابق الواحد»، والمجتمع الإسلامي من هذا النوع الثاني والذي يتمثل حديث النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(١). وكان أبرز نموذج مجسَّد لهذا المجتمع (ذي البنيان المرصوص) مجتمع المدينة الذي تَأَلَّف من (الأنصار والمهاجرين).

الثمرة الثانية: تصحيح المفاهيم (التجارة الرابحة نموذجًا)

التجارة في المفاهيم البشرية الرائجة وفي النظريات الاقتصادية عملية بيع وشراء، بحيث يَدفع المشتري تعويضًا للبائع عما يقع في حوزته، بحيث يحقِّق كل طرفٍ من أطراف التجارة مكسبًا ذاتيًّا لنفسه، إما بامتلاك ما يرغب في امتلاكه (المشتري) لحاجةٍ لديه لهذا الشيء (المباع) أو استكمال نقصٍ ما، أو رغبة في استخدامه بصورة مادية مرةً أخرىٰ، أو ابتغاء للمال الذي يقع من وراء عملية البيع (للبائع).

---

(١) أخرجه البخاري، باب: نصر المظلوم (٢٤٤٦)، ومسلم، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٥).

تَذكُر «سورة الصف» مفهومًا للتجارة، لا يختلف من حيث الشكل عن المفهوم السابق (أي وجود طرفين بائعٍ ومشترٍ)، ولكن مع اختلاف حقيقة التجارة وغايتها وأهدافها لدىٰ كل من الطرفين.

فمِن حيث الشكل فإنَّ طرفا (التجارة) هما: الله تعالىٰ (المشتري)، والإنسان (البائع)..

أما موضوع التجارة -كما توضحه سورة الصف- فهو (النفس والمال)، أما حصيلة تلك التجارة فهي لطرفٍ واحدٍ، وهو الإنسان (المغفرة والجنة).

إن الاختلاف الجوهري بين التجارة البشرية والتجارة الرابحة مع الله تعالىٰ في أمرين، الأول: أن الله تعالىٰ هو المالك الحقيقي لموضوع التجارة (موضوع البيع - النفس والمال) بل والإنسان كله، فالله تعالىٰ الخالق علىٰ سبيل الحقيقة واليقين، ولا دخل للإنسان في خَلقِه ولا كَسبِه. كذلك فإن عملية البيع والشراء لا يتحقق بها مكسبٌ علىٰ وجهِ الحقيقة إلا لطرفٍ واحدٍ، وهو الإنسان (الذي لم يَملك أصلًا ما يَبيع). فكأن الله (المالك الحقيقي) اشترىٰ من الإنسان ما يملك، ويقابله بمقابلٍ لا يستحقه الإنسان (البائع مَجازًا).

الثمرة الثالثة: التحذير من الفصل بين القول والعمل:

إن «الإيمان» له متطلباتٌ، كما جاء في تعريفه: "اعتقاد باللسان وعمل بالأركان"، أو "ما وقَرَ في القلب وصدَّقَه العمل". إن الإيمان الإسلامي غايته الفلاح المجتمعي، وهداية الناس جميعًا إلىٰ الحقيقة، والقِيَم التي ترشِد إليها تلك الحقيقة، وهذا لا يمكن أن يكون بمجرد القول، أو بتناقُضٍ بين القول وبين العمل، فتكون الكلمة التي تَخرج من اللسان يخالفها مسلك الأركان. وقد وصف الله ذلك بالمقت الكبير، أي أن المسلم الذي يخالف قولُه سلوكَه لا يحبه الله، ومَن لا يحبه الله لا يحبه الناس؛ ومِن ثَم فإنه في منزلةٍ ربما تقترب به إلىٰ مجتمعٍ آخَرَ غير مجتمع المسلمين إذا اعتاد علىٰ ذلك الفصل بين القول والعمل، أي أنه قد يقترب من مجتمع النفاق والعياذ بالله.

أما القول فيمكن أن نتأمله علىٰ وجوهٍ: منها، قول التوحيد (الشهادتين)، فلا يجب أن يأتي المسلم ما يناقض التوحيد. ولا ينبغي أن يشرك بالله شيئًا، أو يرتكب من الكبائر والمنكَرات ما يناقض التوحيد ومتطلباته وحدوده وقِيَمه. ومنه أيضًا: الوعد، فالمؤمن لا يخلف وعْدَه. ومنه: الشهادة، فلا ينبغي كتْمُ الشهادة. ونحو ذلك مما يجب فيه وصْلُ العمل بالقول.

رابعًا: الخلايا الطرفية الأولية (مصادر الغذاء)

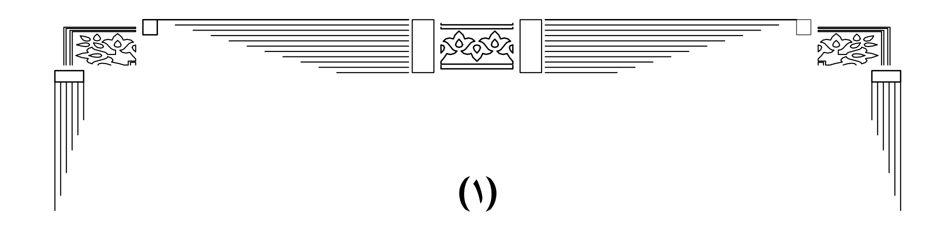
الناظم الذي يتخلل مفاصل السورة: من جذرها إلىٰ سيقانها إلىٰ ثمارها وزهورها، ويغذي كل قِيَمها ومفاهيمها هو وَحدة المنهج الإلهي للبشرية، وتَواصُله واستمراره في حلقاتٍ متتابعةٍ حتىٰ ختامه بالنبي محمد ﷺ (كما جاء في الآيات ٥، ٦، ٩)، وأن وحدة المنهج تقتضي وحدة الطريق، ووحدة الغاية (كما في الآية ١٤)، وهذا قول النبي ﷺ: «**الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ: دِينُهُمْ وَاحِدٌ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّىٰ**»[1].

إن تَناوُل «سورة الصف» جانبًا من قصة موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام -فيما يَقرب من ثلث السورة- ووصْلُهما بالنبوة الخاتمة يقتضي النظر والوصل، والاعتبار والبصيرة لطبيعة طريق المؤمنين السابقين، إن مفاهيم «الإيذاء»، و«التكذيب»، و«الفتح»، و«البُشرىٰ»، و«المخالَفة» و«المناصَرة»، و«التأييد»، و«ظهور الحق»، كلها من طبيعة الطريق لم تتخلف في أيِّ جيلٍ، ولا أيِّ تاريخٍ للإيمان، ولا مع أيِّ نبيٍّ.



(١) أخرجه البخاري، باب: قول الله: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مَرْيَم: ١٦] (٣٤٤٣)، وأحمد، باب: مسند أبي هريرة (٩٦٣٢) واللفظ له.

تدبر القرآن
وبعض قضايانا المعاصرة



(١)

«الترف» في القرآن
وعلاقته بهلاك الأمم وفنائها

نلتمس من القرآن قواعد سَير التاريخ وسننه الحاكمة لبعض الظواهر، لا سيما وأن القرآن نظر إلىٰ التاريخ نظرةً إيجابيةً، وحفَّز المسلمَ إلىٰ دراسة هذه السنن، فالتاريخ مُعلِم للإنسان - فقط للإنسان، فهو الكائن الوحيد الذي له تاريخٌ، وهو الكائن الوحيد الذي يصنع تاريخه بنفسه ويتحكم فيه، ومن هنا دعا الوحي من باب: التقرير والحفز والتوجيه إلىٰ قراءة أحوال الأمم في ماضيها وحالها بمناهج وأساليب تقوم علىٰ مفاتيح تلك القراءة وهي: السير والنظر والاعتبار، وبالطبع لا يقصد الوحي تلك القراءة العابرة، وهو ما كثَّفت الحضارة المعاصرة مراكزها الفكرية نحوه بصورٍ متعددةٍ.

منهاجية بناء نظرية الترف

نؤكد أولًا أننا لسنا بصدد بناء نظريةٍ رياضيةٍ صوريةٍ، التي هي أحد فروع علم الرياضيات، ولكننا بصدد النظر في نظريةٍ اجتماعيةٍ تقوم علىٰ الملاحَظة والمشاهَدة والاستقصاء والاستقراء للوقائع والأحداث التي وقَعت بالفعل، مع الإشارة إلىٰ فروضها التي أثبتَتها تلك المشاهَدات والوقائع. وتتضمن النظرية الاجتماعية هنا عدة عناصر، هي: البعد المفاهيمي لموضوع النظرية، وهو «الترف»، ثم أبعاد المفهوم الواقعية، ثم استقراء الوقائع والمشاهَدات التي سجَّلها الوحي، ثم خلاصات معرفية لقواعد كلية لهذه النظرية.

الفضاء اللغوي لمفهوم «الترف»

يحتوي الفضاء اللغوي للترف علىٰ المعاني التالية:

- الترف: التوسع في النعمة، يقال أُترف فلان فهو مُترَف[١].

- أترف فلان: أصرَّ علىٰ البغي[٢].

- تَرِف - تَرفًا: تَنعَّم، وأترفه الله نَعَّمَهُ وأعطاه ما يشتهي في الدنيا ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [المؤمنون: ٣٣].

- الترف: التنعم... والمترَف: الذي قد أبطَرَته النعمة أي أَطغَته... وهو -أيضًا- المتنعم المتوسع في ملاذِّ الدنيا وشهواتها. وفي الحديث: إن إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- فُرَّ به من جبَّارٍ مُترَفٍ. وقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ [سبأ: ٣٤]: أي أُولو التُرفةِ. وأراد -هنا- رؤساءها وقادة الشرَّ منها[٣]. وقال تعالىٰ في ربطِ الترف بالطغيان والفساد: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ﴾ [هود: ١١٦]، أي جَرَوْا وراء شهواتهم وتمادَوا في الترف فأبطَرَهم وأطغاهم[٤].

- التُّرفَةُ، بالضم، النِّعمَةُ، والطعامُ الطَّيِّبُ، وكفرحَ: تَنَعَّمَ. وأترَفَته النِّعمَةُ: أطغَته، أو نَعَّمَتهُ، كتَرَّفَتهُ تَتريفًا، وفلانٌ: أصرَّ علىٰ البَغي. والمُترَفُ، كمُكرَم: المَتروكُ يَصنَعُ ما يَشاءُ لا يُمنَعُ، والمُتَنَعِّمُ لا يُمنَعُ من تَنَعُّمِهِ، والجَبَّارُ. وتَتَرَّفَ: تَنَعَّمَ واستَترَفَ: تَغتَرَفَ وطَغَىٰ[٥].

يُمدنا الفضاء اللغوي بجملةٍ من المعاني حول معنىٰ «الترف» و«المترَفين»، وهذه المعاني يمكن النظر فيها فيما يلي:

---

(١) الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، ص١٦٦.

(٢) المعجم الوسيط ص٨٤.

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٣٠.

(٤) إبراهيم عبد الفتاح: القاموس القويم للقرآن الكريم، ج١، ص٩٨.

(٥) القاموس المحيط.

١- الترف يرادف: التنعم والتلذذ بالشهوات في غير استقامةٍ.

٢- الترف يرادف: البطر والتنكر والجود.

٣- الترف يرادف الطغيان وتجاوُز الحدود.

والخلاصة المعرفية التي نراها أن الترف: الغنىٰ المُطغي، أي غير المسؤول أمام الله وأمام الناس وأمام التاريخ.

الوحي و«الترف»

مبدئية التوجيه والإصلاح

تعرَّض الوحي لمسألة الغنىٰ الواسع والتنعم في صورتين: الأولىٰ صورةٌ توجيهيةٌ، يَطرَح فيها قاعدةً إلهيةً ثابتةً وقائمةً إلىٰ آخر الحياة الدنيا، وهي أن المنح -أي الغنىٰ الموسع- أو المنع -من هذا الغنىٰ الموسع (أو حتىٰ الفقر)- ليس دليلًا علىٰ شيء عند الله تعالىٰ. فالأول لا يعني قبولًا من الله أو قُربًا في درجة الناعم المُتنعم، والثاني -أي الفقير وحاله- ليس دليلًا علىٰ رفضِ الله أو ابتعاد العبد في درجته عند الله، وهنا يقرر الوحي هذه القاعدة ويسجلها للإنسان عبر التاريخ: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفَجْر: ١٤-١٥].

والواقع الذي يتحرك فيه الإنسان -كما يقرره الوحي ويرصده رصدًا تاريخيًّا- هو بالطبع مجال الابتلاء، أي الاختبار الإنساني، الذي هو المجال التطبيقي لأداء التكليفات الإلهية في الأرض. ومن ناحيةٍ أخرىٰ يُذَكِّر الوحيُ الإنسان من باب التوجيه المعياري أن المال الذي يحصل عليه (والذي يُعَد رمزًا للنعم والتنعم) هو في هذا المنظور الإلهي «مستخلَفٌ فيه»، أي أنه واسطةٌ بين الله وبين مصادر إنفاق المال المشروعة والمباحة، ولذلك يحدِّد له أبواب التحريم -وهي محدودةٌ بحَدِّها وعدَدِها- التي يمكن أن يقع فيها، وهذه الأبواب هي:

١- الإمساك والاكتناز.

٢- التصرف فيه بسفهٍ.

٣- التعامل فيه «بالربا».

٤- استخدامه وسيلةً لإفساد المجتمعات والأمم.

٥- الإسراف والتبذير فيه والإنفاق في غير وجهِه وقصدِه.

إن هذه الحدود القليلة التي يُمنع فيها التعامل مع المال، أو استخدام المال في أحد وجوهها، يؤدي إلىٰ بناء طُرقٍ ومناهجَ اجتماعيةٍ سويةٍ للفرد والجماعة والأمة في عصب حركتها، وهو المال، ومن هذه المناهج والطرق التي نلتمسها في ضوء المنظور القرآني لمعالجة وإصلاح النظرة إلىٰ المال:

١- التأكيد علىٰ قيمة التداول ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

٢- الزكاة والصدقات لبناء نظم اجتماعية قوية ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤]، ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٩].

٣- مقصد المحافظة علىٰ المال وإصلاحه كلما أصابه مرضٌ في التوظيف والاستخدام مِن قِبل الجماعة الاجتماعية المؤتمَنة علىٰ مال الجماعة كلها.

إن هذه المحظورات وهذه الطرق والمناهج الناتجة عن مراعاتها، والتي تحافظ علىٰ موضع المال وموضوعه في الجماعة الاجتماعية، تُجنِّب الأممَ الانحرافَ الأخلاقي الذي قد يمارسه البعض في حق المال، ومِن ثَم في حق النظام الاجتماعي كله القائم علىٰ عصب هذا المكوِّن المهم في التاريخ الإنساني للمجتمعات، والتاريخ المعاصر بصفةٍ أكثر خصوصية. إن هذا الانحراف لا شكَّ حال حدوثه لا يعود علىٰ صاحب المال وحده (بهذا المنظور الضيق)، ولكنه يعود علىٰ المجتمع كله؛ وذلك لأن المال وحرَكَته أحد الروابط الرئيسة - كما ذكرنا وكما يؤكد علم الاجتماع- للبناء الاجتماعي كله في لُحمته الإنسانية والمادية كذلك.

ومِن ثَم جاءت الدلالات اللغوية في معنىٰ الترف تؤكد أن سوء التوظيف الاجتماعي للمال هو توصيفٌ تمامًا لحالة الطغيان، أي مجاوَزة الحد، أي حد البناء الاجتماعي وسلامته وصحته، ولعل ذلك ما جعل النبوة تلفِتُ النظر إلىٰ ضرورة العمل الدائم علىٰ الإصلاح في النظام الاجتماعي، وأن يكون فِعل الإصلاح فِعلًا دائمًا، أي يتصل بحيوية المجتمع وحركته ولا يتوقف خوفًا علىٰ سلامة البنيان، وكانت إحدىٰ مخاوف النبوة علىٰ المجتمع «..غنىٰ مطغيًا» لأنه يؤهل الفرد لبعث نجد الشر والعبث من طبيعته الإنسانية ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾ [العلق: ٦].

مواضع الترف في القرآن وأشكالها

جاء «الترف» في القرآن في ثمانية مواضع هي:

١- ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

٢- ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

٣- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

٤- وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

٥- وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٣].

٦- قوله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢-١٣].

٧- وقوله تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ۝٦٤ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤-٦٥].

٨- وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥].

نَخلص من هذه المواضع الثمانية إلىٰ جملةٍ من المعاني التالية لمفهوم الترف في القرآن وارتباطاته وعلاقاته بمعانٍ وخصائص أخرىٰ، وهي:

١- ربط «الترف» بالفسق وضد الهداية [الإسراء: ١٦].

٢- ربط الترف بالظلم والسكوت عن الفساد في الأرض [هود: ١٦].

٣- ربط الترف بمواجهة الهداية، والدعوة إلىٰ كل ما هو ضد الاستقامة [سبأ: ٣٤]، [الزخرف: ٢٣].

٤- ارتباط الترف بمناهضة الرسل والتكذيب، ودعوة الناس إلىٰ تكذيب رسل الله والتكليفات الأخلاقية الواردة في رسالاتهم [المؤمنون: ٣٣].

٥- علاقة الترف باستحقاق العذاب من الله لعدم الاتعاظ بالهدىٰ/ واستحقاق الهلاك [الأنبياء: ١٢-١٣]، [المؤمنون: ٦٤-٦٥]، [الواقعة: ٤٥].

٦- يأتي الترف «دائمًا» جماعيًّا وليس فرديًّا ﴿أُتۡرِفۡتُمۡ﴾، ﴿أُتۡرِفُواْ﴾، ﴿مُتۡرَفُوهَآ﴾، ﴿مُتۡرَفِيهَا﴾، ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾، ﴿مُتۡرَفِينَ﴾، وهو ما يشير إلىٰ دلالته الاجتماعية وتأثيره في مكونات البناء الاجتماعي، ومخاطر تلك الحالة علىٰ سلامة ذلك البناء وصحته.

ونورد فيما يلي أهم ما جاء في بعض التفاسير القرآنية لمعنىٰ «المترفون»:

١- المنعَّمون - الملأ الذين أطغتهم الدنيا وغرَّتهم الأموال واستكبَروا علىٰ الحق[1].

(١) تفسير السعدي.

٢- الذين عاشوا حياتهم في اللهو واللعب والتقلُّب في ألوان الملذات والتمرغ فيها[١].

٣- أولو النعمة والثروة والرياسة[٢].

٤- الجبابرة والقادة ورؤوس الشر[٣].

٥- الشرار الرؤساء[٤].

٦- المؤْثِرون للدنيا عن الآخرة[٥].

٧- المتنعمون بالحرام[٦].

٨. المشركون[٧].

٩- الذين ألْهتهم ملذات الدنيا، وألهاهم الأمل عن إحسان العمل[٨].

١٠- متبعو الهوىٰ، وسالكو خطوات الشيطان[٩].

١١- الذي يتقلب في نعم الله تعالىٰ، ولكنه يستعملها في المعاصي لا الطاعات، وفي الشرور لا الخيرات[١٠].

---

(١) الوسيط - طنطاوي.
(٢) ابن كثير.
(٣) ابن كثير.
(٤) المراغي.
(٥) الطبري.
(٦) القرطبي.
(٧) القرطبي.
(٨) السعدي.
(٩) الوسيط.
(١٠) تفسير الوسيط.

الوحي والتناول الوضعي للترف

يرصد الوحي تاريخًا من واقِع الأمم وعلاقتها بالترف، أو علىٰ الوجه الصحيح علاقة الترف بهلاك تلك الأمم، ويعلِّق الوحي علىٰ ارتباط «هلاك الأمم» بحالة «الترف» بالمفهوم الذي توَصَّلْنا إليه وهو: الغني غير المسؤول أمام الناس وأمام الله، أو ما عبَّرَت عنه النبوة: «غنًىٰ مُطغيًا»، أي مجاوِزٌ لحدود رعاية الخلق وأصول العمران وطريق الهداية.

معانٍ تدبرية في علاقة الترف بهلاك الأمم:

١- ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾:

في هذه الآية [الإسراء: ١٦] يرصد الوحي نموذج هلاك الأمم في التاريخ، تلك التي تجاوَزَت في حق الإنسان وحق الله علىٰ الأرض، والحقيقة أن الأمة لم تكن كلها متجاوزةً، ولكن كانت هناك فئة أسماها الوحي هنا «مُتْرَفِيهَا»، أي رؤساء وكبار هذه الأمة، فغالبًا ما يرتبط الغنىٰ الفاحش بسياسة وقيادة الأمم (السلطة الحاكمة) وهو من أمراض المجتمعات والحضارات وسقمها. وأمْر الله هنا لهؤلاء «المترفين» لأنهم يمثلون قمة السلطة في أقوامهم، وأنه بهدايتهم وامتثالهم طريق العمران والعمل بالتكاليف الإلهية للاستخلاف. وبالانضباط بضوابط القانون الأخلاقي الإلهي سوف ينضبط باقي أفراد الأمة، والعكس كذلك صحيح «فالناس علىٰ دين ملوكهم» كقاعدة عامة في حالة البشرية علىٰ مَرِّ التاريخ.

كذلك فإن غياب قوة القانون في تلك الأمم التي تمنع من تجاوُز المترفين، ومن غياب الجماعة الاجتماعية وشبكة علاقات قوية يكون في مقدورها الردع بهذا القانون، فإن ذلك يؤهل لهلاك الجميع.

وجاء في معنىٰ ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾: أي أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش، فاستحقوا العقاب والهلاك.

يقول المراغي في تفسيره[١]: "أي إذا دنا وقت تعلُّق إرادتنا بإهلاك أي قريةٍ بعذاب الاستئصال -لما ظهر منها من المعاصي ودنَّسَت به نفسها من الآثام- لم نعاجلها بالعقوبة، بل نأمر مترفيها -سادة الأقوام وكبرائهم- بالطاعة... فإذا فَسَقوا عن أمْرِنا وتَمرَّدوا حقَّ عليهم العذاب جزاءً وفاقًا لاجتراحهم السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش.. وخَصَّ المترفين بالذِّكر: وذلك لأنهم في عادة الأمم يكونون هم السادة، ويكون العامة تبعًا لهم. وقد يكون: أن الله يفيض عليهم نِعَمَه التي يختبرهم بها... فتبطرهم ويقعون في المعاصي".

و: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ -أيضًا- أي أمرناهم بالطاعة؛ إعذارًا وإنذارًا وتخويفًا ووعيدًا، ﴿فَفَسَقُوا﴾ أي فخرجوا عن الطاعة عاصين لنا، ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ فوجب عليها الوعيد.

٢- ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ﴾:

يرادف الوحي في آية [هُود: ١١٦] بين الترف والظلم والفساد، فشكل الترف هنا اقترانه بالظلم، والظلم في أقل درجاته السكوت عن الفساد، وفي أعلاها فِعل الفساد ومحاربة الصلاح والصالحين. لذلك يحكي الوحي أن هذه القرون (الأمم) إنما هلَكَت بأمرين:

- فساد مترفيها وظُلمِهم.

- وغياب ﴿أُولُوا بَقِيَّةٍ﴾ يَنهون عن هذا الفساد والظلم: أي ذو بقيةٍ من الفهم والعقل والإيمان، يعتبرون مواعظ الله ويتدبرون حُجَجَه، فيَعرفون ما لهم في الإيمان بالله، وما عليهم في الكفر به... ويَنهون أهلَ المعاصي عن معاصيهم، وأهلَ الكفر بالله عن كُفرِهم به في أرضه[٢].

(١) تفسير المراغي، ج١٥.

(٢) تفسير الطبري، سورة هود: ١١٦.

٣- ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾:

يربط الوحي هنا بين حالة هذه الأمم [المؤمنون: ٣٣]، [سبأ: ٣٤] -والتي ظهر فيها ذلك المرض الاجتماعي «الترف»- وبين التكذيب، ولأنهم -أي المترفين الذين ألهتهم الدنيا بشهواتها وملذاتها- يشعرون في قرارة أنفسهم أنهم فوق البشر، فلا يُصدِّقون نبيًّا أو رسولًا جاء بوحي أو نبوةٍ من عند الله، ولهذا كانت دعوة تكذيبهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾، وهم يعلنون منذ البدء -حتىٰ دون سماعٍ للنبي- أنهم بما جاء به يُكذِّبون ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾.

جاء في «تفسير الوسيط»[(١)] [المؤمنون: ٣٣] ما معناه: أي وقال الأغنياء والزعماء -من قوم هذا النبي الذين أَبطَرتهم النعمة التي أَنعَم اللهُ بها عليهم في الدنيا-: ما هذا الذي يدَّعي النبوةَ إلا بشرٌ مثلكم. والمتأمل هنا: يرىٰ أن الله تعالىٰ وصَفَ هؤلاء الجاحدين بالغنىٰ والجاه... بَيْدَ أنهم أُصلاء في التكذيب باليوم الآخر، وأنهم -فوق ذلك- من المترفين الذين عاشوا حياتهم في اللهو واللعب والتقلُّب في ألوان الملذات... ولا شيء يُفسد الفطرة، ويَطمس القلوب، ويعمي النفوسَ والمشاعر عن سماع كلمة الحق كالترف والتمرغ في شهوات الحياة.

٤- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾:

وفي نفس المسار [القصص: ٥٨] يسجل الوحي عددًا من القرىٰ في التاريخ بطِرَت معيشتها. والبطر هو الطغيان والجحود والنكران والخسران،

---

(١) تفسير الوسيط للطنطاوي تفسير: المؤمنون/ ٣٣.

يقول البغوي: "عاشوا في البطر، فأكَلوا رِزق الله وعَبَدوا الأصنام. وهذا يعني أن النعم التي وهَبَها الله للإنسان لها قانونها الأخلاقي والاجتماعي الذي إن تَمَّ الحيد عنه واختراقه مِن قِبَل فئةٍ أو جماعةٍ من الناس، فإن ذلك إيذانًا بهلاكٍ اجتماعيٍّ وفقًا لِما يقتضيه اختراق أيِّ قانونٍ أو تَجاوُزه، ومِن ثَم ارتكاب مُحرَّماته ومحظوراته. وما وَضَع البشر القوانين إلا للمحافظة علىٰ البناء الاجتماعي وضمان سلامته".

٥- ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾:

هذا سؤالٌ إلىٰ الله فيه طلبُ تَذوُّق المشقة [سبأ: ١٨-١٩]، وهو انحرافٌ عن القانون الاجتماعي الذي يوجِب أن تُوظَّف حالة الرخاء المادي إلىٰ تحسين العمران ونمائه، وتحقيق مقاصد الله في الخَلق، وليس التلاعب بتلك النعمة أو العبث بها أو حتىٰ الجهل بقيمة ما هم فيه.. فإن كل ذلك مُؤدٍّ حتمًا إلىٰ انهيار القانون والبناء الاجتماعي. يقول الطبري: "وهذا من الدلالة علىٰ بطرِ القوم نعمة الله عليهم وإحسانه إليهم، وجَهلِهم بمقدار العافية، ولقد عجَّلَ لهم ربُّهم الإجابة، كما عجَّلَ للقائلين: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فأعطاهم الله ما رغبوا إليه فيه وطلبوا من المسألة"[(١)].

كانت هذه القرية في رغد من العيش ومن العمل ومن التجارة ومن الأمن؛ حيث كانوا يسيرون إلىٰ الشام في أمانٍ وأمنٍ، يتجاورون ويبيعون ويشترون وهم في أمنٍ في أنفسهم وفي أُسرِهم، وذلك بتيسير الله لهم ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ [سبأ: ١٨] أي قرىٰ متواصلة، فلا يَشعرون بوحشة الطريق عند سفَرِهم. يذكر الطبري: "كان أحدهم يغدو

(١) الطبري تفسير: سبأ/الآية ١٩.

فيقيل في قريةٍ ويروح فيأوي إلىٰ قريةٍ أخرىٰ. وكانت المرأة تضع زنبيلها[١] علىٰ رأسها، ثم تمتهن بمغزلها، فلا تأتي بيتها حتىٰ يمتلئ من كل الثمار". لكنهم بطروا هذه النعمة التي وهَبَهم الله إياها دون عملٍ منهم أو كدٍّ أو عناء ولا وراثة ولا كسْب يدٍ، فسألوا اللهَ أن يُباعد بين أسفارهم علىٰ سبيل الجهل وبطران نعمة سهولة الترحال والسفر. إن العنوان الرئيس لهذا التعليق القرآني يمكن أن نجعله: الجهل بالنعمة والتغافل عن حقيقتها. وهو أيضًا من موارد الهلاك.

٦- ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾:

في هذا التعليق القرآني [الزخرف: ٢٣] يرتبط الترف بغمط الحق، فالمترفون -أيضًا- يغمطون الحق بدعوىٰ الجاهلية والتجهيل بين العوام، كما أنهم يُروِّجون لهذا الباطل الذي يدَّعُونه بدعوىٰ أنه قولٌ قديمٌ يشتركون فيه مع آبائهم وأجدادهم، يقول السعدي: "إلا قال مترفوها: أي: مُنَعَّموها ومَلَأُها الذين أطْغَتهم الدنيا، وغرَّتهم الأموال، واستَكبَروا علىٰ الحق... أي فإنهم ليسوا ببِدعٍ منهم، وليسوا بأوَّل مَن قال هذه المقالة... وليس المقصود به اتباع الحق والهدىٰ، وإنما هو تعصُّبٌ محضٌ يراد به نصرة ما معهم من الباطل"[٢].

الترف من عوائق استمرار الملك

انشغل ابن خلدون -في مقدمته- ضِمن ما انشغل بدورة المُلْك والسلطة، والتداول الحضاري بين الأمم، والعوامل المؤثِّرة في هذا التداول وتلك الدورة، وكَتَب في تكوين الأمم وعوامل بقائها، وكذلك عوامل فنائها، ومِن

(١) الزنبيل: القفة الكبيرة.

(٢) تفسير السعدي: الآية ٢٣ الزخرف.

أهم ما كَتَب في عوامل فناء الدول ما كَتَبه تحت عنوان: (من عوائق المُلْك حصول الترف وانغماس القبيل في النعيم)[١].

واتباع منهجية التحليل والتركيب لهذا الفصل يوضح لنا الكليات التالية:

١- قوة الدولة في تناسب/تَوازُن حالة الترف: هذه الحالة التي يرىٰ ابن خلدون فيها عدم وجود أثرٍ سلبيٍّ للترف في الدولة ومسارها الحضاري والتاريخي، وهي الحالة التي تكون فيها عوامل قوة الدولة (التماسك بين ملوكها وأمرائها - العصبية) أعلىٰ من انشغالهم بالنعم التي فُتحَت عليهم، فإذا كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحدٌ في انتزاع أمرِها ولا مشاركتِها فيه أَذعَن ذلك القبيل لولاياتها.

٢- بدء ضَعف الدولة/التنشئة علىٰ الدعة والراحة: وهذه المرحلة التي فيها يبدأ الدور السلبي للترف في الدولة، ويظهر في حالة تنشئة الأمراء علىٰ حياة الدعة والراحة، "والنعيم وخصب العيش والسكون، والأخذ بمذاهب الملك في المباني والملابس، والاستكثار من ذلك، والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو إليه من توابع ذلك؛ فتذهب خشونة البداوة وتَضعُف العصبية والبسالة. . . . وينشأ بَنُوهم وأعقابُهم في مثل ذلك من الترفع عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم".

٣- الفناء وزوال المُلك: وهنا المرحلة الأخيرة التي يقضي فيها الترف علىٰ المُلك والأمم، ويرتبط بسرعة انغماس الأمراء في هذا الترف والانجرار إليه وإلىٰ مساراته المنحرفة الفاسدة، ". . وعلىٰ قدْرِ تَرفِهم والانغماس فيه يكون إشرافهم علىٰ الفناء فضلًا؛ فإن عوارض الترف والغرق في النعيم كاسرٌ من سور العصبية التي بها التغلب. وإذا انقرضت العصبية قصر القبيل عن المدافَعة والحضارة فضلًا عن المطالبة، والْتهَمَتهم الأمم سواهم. . . ".

---

(١) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، فصل من عوائق الملك حصول الترف.

الدراسات الاستقرائية الاجتماعية/التاريخية

من المفيد هنا لباحث التاريخ والحضارة والاجتماع أن يُلفِت نظرَ الأمة إلىٰ أهم التطبيقات الاجتماعية/التاريخية التي لم يَذكرها القرآن فيما يتعلق بفرضية تلك العلاقة بين الترف وهلاك الأمم أو سقوط الدول، كما في حالة الدول والخلافات في الحضارة الإسلامية، ومن أشهرها كانت الدولة العباسية ودولة الأندلس، والإفادة هنا تبدو في التعرف علىٰ تَمَظهُرات الترف وعلاقته بالانهيار الفكري والصناعي والحضاري لهذه الدول والخلافات الإسلامية مقارنة بنشأتها، وهو ما يفيد في قصدية «الاعتبار» و«المعرفة» و«الوعي» التاريخي للعقل الجمعي المسلم المعاصر.

خلاصات حول

القوانين الحاكمة لسُنَّة الترف وهلاك الأمم

يمكن أن نصل إلىٰ بعض الخلاصات المعرفية التي نكتشف منها أهم القواعد الفكرية التي تقوم عليها نظرية القرآن في الترف وعلاقاتها بهلاك الأمم وسقوط الدول وزوال الملك، ومنها:

١- فساد الرؤية العقلية والمعرفية لدىٰ المُترَفين فيما يتعلق بمفاهيمهم وتصوراتهم وقِيَمِهم نحو الله والإنسان والمجتمع.

٢- الاضطراب الوجداني والنفسي بالهياج الشهواني نحو أنماط سلوكٍ مخالِفة للسَّير المجتمعي العام؛ فالمترفون يسيرون عكس السير الاجتماعي العام.

٣- المترَفون يواجهون كافة المشاريع الإصلاحية في المجتمع، ويقاومونها في ذاتها؛ أولًا: بشلِّ حركتِها لامتلاكهم الثروة التي تقترن بالنفوذ أو شرائهم للنفوذ بثروتهم، وثانيًا: ببناء مشاريع مناهضة لمشاريع الإصلاح في

المجتمع، وهو الذي أطلَق عليه القرآن «الإصلاح الدعي» ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة: ١٢][1].

٤- يرتبط المترَفون بالتخطيط للفساد الاجتماعي من منطلَق جهلِهم وعدم اعتبارهم بالقانون الأخلاقي والاجتماعي في المجتمع.

٥- يواجه المترَفون حركة تطوُّر المجتمع التي تسعىٰ للتغيير؛ للحد من هذه الحركة وتفريغ طاقة المصلِحين في تلك المواجَهة.

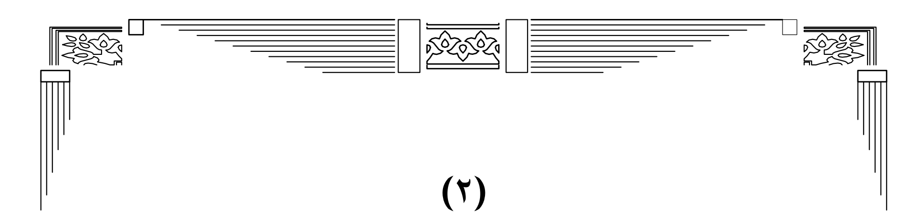
٦- إن مأسسة الترف به خطورةٌ واقعةٌ في حياة الأمم، كأنْ يتحول إلىٰ مؤسسات/ نظُم سياسية، أو مؤسسات/ نظُم اقتصادية، أو مؤسسات/ نظُم اجتماعية.

٧- غياب الجماعة الاجتماعية عن دورها المسؤول -الذين سماهم القرآن: ﴿أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ﴾ [هود: ١١٦]- يمهِّد إلىٰ سرعة تسرُّب الضَّعف إلىٰ المجتمع وسرعة هلاكه.

٨. العلاقة تناسبية بين إقدام الملوك والأمراء علىٰ الترف وبين زوال مُلكِهم وهلاك دولتهم.



(١) اقرأ: البقرة آية: ١٢.



(٢)

سُنَّةُ «الاستبدال» في القرآن الكريم وواقع الأمة

تقع سنة الاستبدال ضمن منظومة سننية أعلىٰ، وهي سنة «التغير»، فالثابت في حركة التاريخ والأمم والإنسان أن التغير هو المبدأ الذي يَحكم حركة الكون والأحياء ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، إلا أن هذا التغير والحركة الدائمة في الكون لهما قوانينهما وسننهما الثابتة التي يمكنها أن تفسِّر لنا هذا التغير واتجاهه وعوامله، كما تتنبأ بحدوثه.

تعتمد نظرية الوحي في التغيير في تفسيرها علىٰ حالة الإنسان الفرد الذي يمكن من خلال ملاحَظتِه الوعي بمآل المجتمع الذي ينتمي إليه في الصعود والهبوط، وفي ذلك يقرر الوحي هذه السنة المنظومية في هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، وصنو هذه الآية أيضًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].. هاتان الآيتان توضحان قواعد حركة التغيير الكبرىٰ التي تَحدُث في التاريخ والحضارات والأمم، فالإنسان هو محرك التاريخ، وكذلك هو مؤشر الصعود والهبوط للأمم والحضارات.

تتضمن المنظومة السننية للتغيير في القرآن الكريم مجموعةً من السنن التي تندرج تحتها، مثل: سُنَّة التدافع، وسُنَّة التداول، وسُنَّة التجدد، وسُنَّة الهلاك، وسُنَّة موت الأمم، وسُنَّة التمكين، وسُنَّة العلو والانحطاط، وسُنَّة

الاستبدال. ولكلٍّ من هذه السنن مقدماتها المادية والمعنوية التي يمكن أن تقاس في تاريخ الأمم في واقعها والتنبؤ بما ستؤول إليه، أو بالعوامل التي أدت إلىٰ وضعِها الحاضر.

«الاستبدال»

الموقع القرآني

وَرَدَت لفظة «الاستبدال» في القرآن في موضعين: الأول في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩]، والموضع الثاني في سورة محمد: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

والظاهر من هاتين الحالتين لمفردة «الاستبدال» أنهما وُضِعَتا في موضع جواب شرطٍ لفعل شرطٍ مفاده العطاء الإنساني، الأول موضع (سورة التوبة) عطاء في مجال «التدافع الحضاري» وهو «النفير»، والثاني موضع (سورة محمد) في مجال تداوُل حركة «رأس المال» في المجتمع، أي تحقيقٌ لضابط حركة المجتمع نحو الاتزان والاستقرار المادي ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ويَذكر القرطبي في تعليقه علىٰ آية (سورة محمد) قوله: "وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد ﷺ فترتدُّوا راجعين عنه يهلككم ثم يجيء بقومٍ آخَرِين غيركم بدلًا منكم، ويحدد أوصاف هؤلاء القوم الآخرين:

١- يصدقون به.

٢- ويعملون بشرائعه.

٣- ثم لا يبخلون بما أُمِروا به من النفقة في سبيل الله.

٤- ولا يضيعون شيئًا من حدود دينهم.

٥- يقومون بما يؤمرون به كله".

أركان سنة الاستبدال

(وَإِن تَتَوَلَّوْا)

الركن الأساس في هذه السُنَّة «الاستبدال» هو «التوَلِي» عن أمر الله تعالىٰ، وللتوَلِّي أشكالٌ ومَظاهر، نتناولها بعد إطلالةٍ علىٰ الفضاء اللغوي القرآني للفظة «تَتَوَلَّوْا». لفظة «تَتَوَلَّوْا» جذرها اللغوي «وَلِي»، ويشير الراغب الأصفهاني -في المفردات- إلىٰ معاني التولي في القرآن كما يلي:

١- من الولاء والتوالي: ويشير هذا المعنىٰ إلىٰ أن يحصل شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث: المكان، والنسبة، والدين، ومن حيث: الصداقة، والنصرة، والاعتقاد، ومن حيث: الولاية والنصرة. وفي ذلك نفىٰ الله تعالىٰ الموالاة بين المؤمنين والكافرين في أكثر من آية، منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾ [المَائِدَة: ٥١]، وجعل بين الكافرين والشياطين موالاة في الدنيا: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأَعۡرَاف: ٢٧].

٢- من الإعراض: فقولهم: «تولَّىٰ». إذا عُدِّيَ بنفسه اقتضىٰ معنىٰ الولاية، وحصوله في أقرب المواضع، مثل: ولَّيتُ وجهي أي أقبَلتُ عليه ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [المَائِدَة: ٥١]. وإذا عُدِّيَ بـ (عن) لفظًا أو تقديرًا اقتضىٰ معنىٰ الإعراض، وتَرْكِ قُرْبِه. ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [آل عِمۡرَان: ٦٣].

ووَلَّىٰ عن الشيء انصرَف عنه أو أَعرَض عنه، أو ذهب بعيدًا عنه.. ووَلَّىٰ وجهه إلىٰ الشيء: اتجه إليه. وتولىٰ أعرَض وانصرَف[١].

أبعاد (إِن تَتَوَلَّوْا) ومظاهرها

كما سبق وأشرنا؛ فإن سنة الاستبدال رُكنها الركين هو التولي، نلقي الضوء هنا علىٰ أبعاد هذا التولي في القرآن ومظاهره.

وردَت مشتقات الجذر (وَلِيَ) حوالي (٨٠) مرةً بحسب التتبع المعجمي، كان من بينها (٦٤) موضعًا تشير إلىٰ عوامل الاستبدال -للأمم والأقوام والنُظُم والمكانات والقوة والمنعة- وتوضح أركان التولي (فعل الشرط) لحالة الاستبدال (جواب الشرط). وقد حاولْنا تصنيف هذه الأبعاد النزوعية والمظاهر السلوكية ومآلاتها تصنيفًا مبدئيًّا أخذ الشكل التالي، الذي نشير فيه إلىٰ البُعد/المظهر الخاص بشكل (التولي) مع ذِكر رقم الآية والسورة الوارد فيها.

١- الإعراض عن.. وجاء ذلك في (٢٢) موضعًا موزَّعًا حسب نزوعات الإعراض وموضوعاتها التالية:

- الإعراض عن الالتزام بعهد الله ومواثيقه: [البَقَرَة: ٦٤].
- الإعراض عن القِيَم الإلهية: [البَقَرَة: ٨٣].
- الإعراض عن الإيمان والهدىٰ: [البَقَرَة: ١٧٧]، [هُود: ٥٢].
- الإعراض عن الإسلام وتعاليمه: [آل عِمرَان: ٢٠]، [آل عِمرَان: ٢٣]، [آل عِمرَان: ٣٢]، [آل عِمرَان: ٦٤]، [هُود: ٥٧]، [هُود: ٣]، [النَّحل: ٨٢]، [يُونس: ٧٢]، [المعَارج: ١٧]، [الأنبيَاء: ١٠٩]، [النَّجم: ٣٣]، [التغَابُن: ١٢].
- الإعراض عن سماع كلام الله: [الأنفَال: ٢٣]، [الأنفَال: ٤٠].
- رفض البراءة من المشركين: [التوبَة: ٣].

(١) أحمد عبدالفتاح: القاموس القويم للقرآن الكريم، ص٣٦١.

- الإعراض عن الاستجابة إلىٰ التوبة: [التوبة: ٧٤].

- الإعراض عن ذكر الله: [النجم: ٢٩].

- الإعراض عن الآخرة: [الممتحنة: ٦].

٢- موافقة الهوىٰ وطاعة الشيطان: [المائدة: ٤٣]، [النحل: ١٠٠]، [الحج: ٤].

٣- التكذيب بالآيات والسنن: [طه: ٤٨]، [القيامة: ٣٢]، [الغاشية: ٢٣]، [الليل: ١٦]، [العلق: ١٣].

٤- التخلف عن الجهاد/الفرار من الزحف: [البقرة: ٢٤٦]، [آل عمران: ١٥٥]، [الأنفال: ١٥]، [الفتح: ١٦].

٥- التخلي عن نصرة المسلمين في عَثرَتِهم: [التوبة: ٥٠]، [التوبة: ١٢٩].

٦- التوجه إلىٰ الانحلال الأخلاقي: [آل عمران: ٨٢]، [المائدة: ٤٩].

٧- الانصراف إلىٰ الإفساد في الأرض: [البقرة: ٢٠٥]، [آل عمران: ٦٣]، [محمد: ٢٢].

٨. مخالفة الله ورسوله: [المائدة: ٩٢]، [الأنفال: ٢٠]، [النور: ٤٧]، [الصافات: ٤٠]، [الفتح: ١٧]، [النساء: ١١٥].

٩- موالاة الباطل وأعداء الإسلام والمنافقين: [النساء: ٨٩]، [المائدة: ٨٠]، [التوبة: ٢٣]، [المجادلة: ١٤]، [الممتحنة: ٩]، [الممتحنة: ١٣].

١٠- التهرب من الإنفاق في سبيل الله: [محمد: ٣٨].

١١- الانصراف إلىٰ جمع الكيد للمؤمنين: [طه: ٦٠].

١٢- عِظم الإثم: [النور: ١١].

١٣- محاولة الهروب من عقاب الله: [الصافات: ١٧٨].

١٤. الانصراف إلىٰ ملذات الدنيا وشهواتها: [النجم: ٢٩].

١٥. دعوة الناس إلىٰ غمط حقوق الناس: [الحديد: ٢٤].

المسلمون وسُنَّة «الاستبدال»

جاء استبدال الأمم السابقة عن طريق هلاكها، كما في أقوام: ثمود، وصالح، ولوط، وشعيب، وكان ذلك بهلاكٍ مباشرٍ من الله تعالىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وشكل آخر للاستبدال هو نقلُ العزة والغلبة من أمةٍ إلىٰ أمةٍ ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ [الروم: ٢-٣].

ثم كان نقلُ راية قيادة البشرية إلىٰ بني إسرائيل علىٰ يد سيدنا موسىٰ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦]، وسنَّة التمكين هي الوجه المقابل لسنة الاستبدال، فما كان هناك استبدالٌ لقوم إلا ويوازيه تمكينٌ لقوم آخَرين -وكلٌّ بشروطه وقوانينه- حتىٰ استحَقوا الاستبدال بما فعلوه في نشرِ المنكَر وتحريف شريعة الله ومخالَفة عهوده ومواثيقه، فاستحقوا الاستبدال ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ إلىٰ آخر الآيات التي توضح مصيرهم بنهاية زعامتهم وتَخلِّيهم عن راية الله.

ثم تَسلَّم المسلمون هذه الراية باعتبارهم الأمة الخاتمة والشاهدة والوسط علىٰ الأمم السابقة والحاضرة، ومنَحَ اللهُ هذه الأمةَ خيريتها بشروطها:

١- الإيمان بالله.

٢- الأمر بالمعروف.

٣- النهي عن المنكر.

٤- امتلاك مؤهِّلات التمكن لتحقيق الشهود علىٰ الأمم.

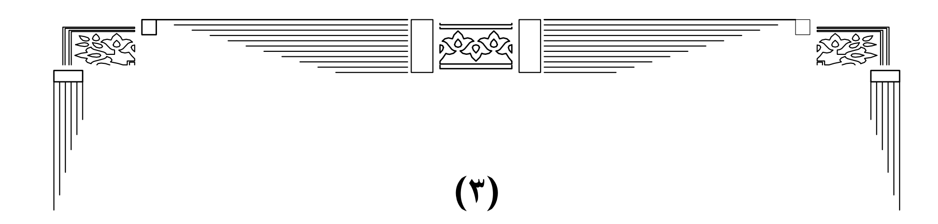
٥- تبليغ رسالات الله بلاغًا مبينًا.

ولقد فقَدَت الأمةُ كثيرًا من هذه الشروط وجُلَّها، فتراجعَت عن الشهود والبلاغ، وعن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكَر داخلها وخارجها، وأصبحَت تابعةً يُستذَل أبناؤها لغيرها من الأمم، ومِن ثَم فقَدَت الشهود الحضاري، والإمكان الحضاري، والإرادة الحضارية.

لقد جرَت علىٰ المسلمين سُنَّة الاستبدال، وتوفَّرَت عوامله وشروطه، وازدهَرَت بين طبقاته الحاكمة والعالِمة وفي ضميره الجمعي، وتراجَعَت في الأمة سُنَّة «التدافع» بين الخير والشر، وكَثُر شرُّها، وانتشَرَ المنكَر ودعا إليه علماؤها وحكامها، وغابت رسالتها نحو البشرية كلها، وتَحلَّل كيان الإنسان فيها، فلم يعُدْ هو ذاك الإنسان القادر علىٰ صناعة تاريخه، وتبليغ رسالته؛ بل أضحىٰ إنسانًا مريضًا، مجبَرًا لا حرًّا، ومسيَّرًا لا مخيَّرًا، تابعًا لا قائدًا، متشبهًا لا حضاريًّا.

من أجل ذلك استحَقَّت الأمة الاستبدال، واستبدالها ليس بهلاكها، وإنما بضَعفِها ونقلِ راية العزة والرفعة والمنَعة والقيادة لغيرها من الأمم.





(٣)

الظواهر المَرَضيَّة في القرآن

إن جملة الأفكار الاجتماعية في القرآن الكريم لا تقف عند مجرَّد الأمر والنهي بالتكاليف التشريعية أو الأخلاق الاجتماعية المعيارية، التي تحافظ علىٰ استقرار المجتمع وتماسُكِه بهدف المحافظة علىٰ بقاء المجتمع ووجوده، وإنما تتجاوز هذه الأفكار الاجتماعية -التي تؤسِّس في كنهها قواعد ضروريةً لعلم اجتماع القرآن- هذا الشكلَ المعياريَّ إلىٰ الكشف عن الجوانب المَرَضيَّة التي من شأنها أن تُصدِّع حالةَ التماسك الاجتماعي وتهدِّد بقاءَه، كما ترصد وتحلِّل هذه الجوانب المَرَضيَّة وأبعادها وأماكن استيطانها في الجسد الاجتماعي، وشكل حاملي الأمراض فيها وصفاتهم وأحوالهم.

لقد اعتنىٰ القرآن عنايةً متوازيةً بالتوجيه إلىٰ تجنُّب الآفات من ناحيةٍ، وبالكشف -من ناحيةٍ أخرىٰ- عن تلك الآفات التي قد تصيب المجتمع، وتؤدي إلىٰ ضَعفِه وسقمِه، وتمنعه من مقاوَمة الجراثيم الاجتماعية التي تصيب أعضاءَه وشبكته الثقافية والاجتماعية -وما تتضمنه من قِيَمٍ ومكوناتٍ للحياة وعناصر للتطور الاجتماعي اللازم- وهو ما يمكن أن يؤصل -كما ذَكرْنا- لعلم اجتماع القرآن في منطلقاته ووظائفه.

المرض الاجتماعي: التكوين والنشأة

تقوم النظرة القرآنية للمجتمع علىٰ مبدئية «العضوية» بين أفراده ونظُمِه ومؤسَّساته، فالمجتمع مِثله مِثل الكائن الحي في بنائه العضوي والنفسي والاجتماعي -من الناحية الوظيفية- لكل عضوٍ فيه وظيفةٌ/ دورٌ تتكامل مع

وظيفة/دور العضو الآخَر، وإذا حدَث خللٌ ما في وظيفة العضو يصاب الجسد كله بخللٍ في أداء وظائفه الحيوية، فلا يستطيع القيام بدَورِه ووظيفته علىٰ الوجه المطلوب. وهذا ما بيَّنَته النبوة، قال ﷺ: «**تَرَىٰ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَوَادِّهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَىٰ عُضْوًا تَدَاعَىٰ لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّىٰ**»[١].

ويتراوح تأثير هذا الخلل -أي طبيعته ومساحته وحجمه- بقَدْر عِظَم الإصابة التي أَحدَثَت الخلل، وبقَدْرِ عُمقِها واستمرارها، وكذلك بقَدْرِ السرعة علىٰ معالجتها أو التباطؤ في الاكتشاف والعلاج، فاكتشاف أماكن الإصابة (الخلل) وأسباب تلك الإصابة (المرض) يساعدان في تحديد العلاج المناسب، وكذلك فإن سرعة تقديم العلاج (بشرط مناسَبتِه وفعاليتِه).. كل ذلك يُسهِم في استعادة حيوية (العضو المريض) في الجسد بما يَمنَح الجسدَ القدرةَ علىٰ استعادة المعافاة والحيوية اللازمة، وكما ينطبق ذلك علىٰ الفرد فسيولوجيًّا، فإنه ينطبق كذلك علىٰ الجماعة والمجتمع اجتماعيًّا وحضاريًّا.

ينشأ «المرض الاجتماعي» كما ينشأ المرض العضوي من خلال مهاجمة الجراثيم (الفيروسات) لأضعف ما في الجسد وأقله مقاوَمةً للفيروسات، وتتسلل الجراثيم من ناحية هذا العضو الضعيف، وتحاول أن تُفقِد باقي أعضاء الجسد الاجتماعي المقاوَمةَ اللازمة لإيقاف نشاط هذه الجراثيم ووقفِ حركتِها في باقي الجسد، وتحاول هذه الجراثيم -أيضًا- أن تنتقل إلىٰ باقي الجسد بعد أن (تتمكن) من العضو الذي لم يَستطع المقاوَمة فأصابته بالسقم والعطل.

من الناحية العلمية المرضُ هو اعتلال الصحة، وهو حالةٌ غير طبيعيةٍ تصيب الجسد البشريَّ محدِثةً انزعاجًا أو ضُعفًا في الوظائف التي يقوم بها الجسد، ويتسلل المرض في الجسد عبْرَ طريقين: إما الاستجابة المباشِرة

---

(١) أخرجه البخاري، باب: رحمة الناس والبهائم (٦٠١١)، ومسلم، باب: تراحم المؤمنين وتعاطفهم (٢٥٨٦).

للفيروس (كالاستجابة للشهوات في حالة المرض الاجتماعي) أو نقْل العدوىٰ (كغياب الضمير المجتمعي عن العمل وقت مهاجَمة الفيروسات الاجتماعية، فتنتقل العدوىٰ لقطاعات كبيرة من المجتمع).

والعامل المُمْرِض يكون عن طريقين -أيضًا-، الأول: من خلال الفيروس المسافر الذي يطير إلىٰ كل أجزاء جسد الإنسان ولا يسبب له علةً أو داءً بصورةٍ آنيةٍ ومباشِرةٍ، ويظل باطنًا آثاره إلىٰ حين، والطريق الثاني: عن طريق ما يتناوله الإنسان من أغذيةٍ ملوَّثةٍ بالبكتيريا المسبِّبة للأمراض، أو ما يُعرَف بالتسمم الغذائي.

وبالمِثل: فإن الفيروس الاجتماعي المسافر في جسد المجتمع يتمثل في الهجوم الثقافي الخارجي الذي يمكن أن يواجهه المجتمع، كما في دعوات التحلل الأخلاقي والثقافي التي تأتي من الخارج لتغزو قواعد المجتمع وثوابته الحضارية، كما كانت رياح العولمة وعواصفها، ومِن قبلها مشروع التغريب ومخاطره، فهذه فيروسات مسافرةٌ لم تُصِب جسد المجتمع الإسلامي وقتها بالداء أو الاعتلال المباشر، ولكنها ظلت كامنةً فترةً من الوقت تنتقل بين مجالاته (أعضاء الجسد): التربوية والثقافية والاجتماعية والقانونية والسياسية، حتىٰ تمكَّنَت عبْرَ الزمن من إتلاف أجزاء مهمةٍ من هذا الجسد، تمثَّلَت في الازدواجية المعرفية والأخلاقية التي عليها العالم العربي والإسلامي، وامتدَّت إلىٰ حالات ذوبان الخصوصية الحضارية للأمة في ظل العولمة.

أما «التسمم الغذائي» الذي أُصيبت به مجتمعاتنا الإسلامية، فهو تلَقِّيها أغذيةً جامدةً فسَدَت علىٰ مَرِّ الزمن، وهذه الأغذية -في حالتها الاجتماعية- هي جملة الأفكار والمعتقَدات التي تَكوَّنَت -علىٰ خلاف حقيقة الإسلام عبر قرون الضعف والتراجع الحضاري-. لم تفلح معها بعض الأغذية الصالحة التي قدِّمَت لها، مثل: «الموافقات» للشاطبي، و«المقدمة» لابن خلدون، و«إحياء علوم الدين» للغزالي، و«فصل المقال في ما بين الحكمة والشريعة من الاتصال» لابن رشد، حيث لم تُقبِل الأمة علىٰ هذه الأغذية الصالحة والطازجة

لتطهير مَعدتِها، واستمرَّت في تناوُلها للأغذية المصابة بالتلوث والبكتريا الممْرِضة علىٰ يد نزعات الجبر والتوكل والجمود والتقليد غير المبصِر، وغياب الشورىٰ والتنازع علىٰ السلطة بغير حقٍّ.

لقد اجتمَعَت في الأمة كل الطرق التي تُسبِّب العلة والداء واضطراب الجسد، وهو ما أدىٰ إلىٰ الخلل الوظيفي والحيوي لأداء الأدوار والوظائف المناطة بها عبْرَ التاريخ. ومن المؤسف انتقال هذه الفيروسات الممْرِضة إلىٰ أجيال الأمة اللاحقة، ويزيد من خطورة (عمليات الانتقال) ضَعفُ عناصر المقاومة الذاتية وضَعفُ نشاطها -بين أبناء الأمة- في البرامج التعليمية والتربوية والثقافية، مما يجعل انتشار المرض في جسد المجتمع أقْربَ وصفًا إلىٰ العدوىٰ. ولعل أكثر العدوىٰ التي أصابت مجتمعنا هي: حالة اليأس من القدرة علىٰ التغيير، والتي نتَجَت عن عدم إيمان الفرد بقيمة التغيير أوَّلًا، وثانيًا: عدم القدرة علىٰ إحداث التغيير والتحكم فيه، ومِن ثَم فقَدَت الأمة دورها التاريخي في التبليغ والشهود والوسطية. والعدوىٰ الثالثة: الاستجابة «غير المبصِرة» لكل ما مِن شأنه تفتيت كيان الأمة وخصوصيتها الحضارية، مِن تفَرُّقٍ مذهبي وطائفي وسياسي وأيديولوجي. والعدوىٰ الرابعة: ضُعف مساحات التجديد الفكري في المجالات الفكرية التي يناط بها إحداث التطور الاجتماعي في الأمة، مثل الفقه والاجتماع والثقافة والتربية. والعدوىٰ الخامسة: تغييب مصادر الحياة اللازمة للأمة -لا سيما القرآن والسنة النبوية- عن التفعيل الثقافي والتربوي في برامج التنشئة الفردية والجماعية.

القرآن والمرض الاجتماعي

للقرآن موقفٌ من المرض الاجتماعي -كما أشرنا سابقًا- حيث ينقسم المرض في القرآن إلىٰ قسمين[١]: الأول: عضوي، وهو الخاص بالمرض

---

(١) انظر: الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن.

الجسمي، وهو المذكور في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح: ١٧]، ﴿وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ﴾ [التوبة: ٩١]. وذُكر -هذا النوع من المرض الجسمي- حين الترخص من بعض التكاليف للأجسام المعتلة وغير الصحيحة التي لا يستطيع معها الإنسان القيام بالواجبات المقررة بسبب حال اعتلال صحته.

القسم الثاني: هو المرض الاجتماعي والقلبي، وتحديدًا: الآفات الأخلاقية كالرذائل والجهل، والجبن والبخل، والنفاق، وغيرهم من الرذائل الخُلُقية: كما في قوله: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥]، ونحو قوله -أيضًا-: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة: ٦٨].

إن تشبيه النفاق والكفر ونحوهما بالمرض؛ إما لكونهما مانعًا عن إدراك الفضائل كالمرض الذي يمنع صاحبه من التصرف الكامل، وإما لكونها مانعًا عن تحصيل الحياة الأخروية المذكورة في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. وإما لميل النفس بها إلىٰ الاعتقادات الرديئة، مثل ميل البدن المريض إلىٰ الأشياء المضرة، ولكون هذه الأشياء متصورة بصورة المرض دوي صدر فلان، ونغل قلبه (فسد قلبه). وقال ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ الْبُخْلِ**»[1]، ويقال: "شمس مريضة" إذا لم تكن مضيئةً لعارض عَرَض لها[2].

كما يستعار مرض الجسم للنفاق والفكر، فهما علةٌ في القلوب والوصف

(١) أخرجه البخاري، باب: قصة عمان والبحرين (٤٣٨٣).
(٢) الراغب الأصفهاني، ص٧٦٥.

منه مريض والجمع مرضىٰ، وقوله تعالىٰ: ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أي فجور وشهوة خبيثة(١).

نماذج قرآنية من الأمراض الاجتماعية

(الإصلاح الدعيِّ)

أولىٰ هذه الظواهر المَرَضية التي نتعرض لها هنا هي ظاهرة «الإصلاح الدعيِّ»، ومن الجدير بالذكر أن "مفهوم «الإصلاح» في القرآن واحد من مفاهيم المنظومة المفتاحية الجامعة بين الأفكار والأشخاص والأشياء، وهو مقابل لمفهوم «الإفساد»، وقد يدَّعي المفسِد أنه مصلِح، مما يجعلنا أمام نوعين من مفاهيم الإصلاح: الإصلاح الدعيّ، والإصلاح التوحيدي. الأول ضالٌّ ومراوِغٌ واسمٌ علىٰ غير مسمىٰ، والثاني وحده الجدير باسمه، وهو مفتاح الاستقامة، والتمكين، والعزة، والتزكية، والعمران في الدنيا، والفوز في الدنيا والآخرة"(٢).

إن الإصلاح الدعيِّ -بما هو عليه من ادعاء يخالف حقيقته- هو تشويه لحقيقة مفهوم «الإصلاح» الحقيقي الذي ينبغي أن يقوم علىٰ عدة أركان أصيلة ووظائف معتبَرة، هي: التزكية والعمران والهداية والعدل والتوحيد، بينما «الإصلاح الدعيِّ» يقوم علىٰ أركان الإفساد: التدسية، والتخريب، والضلال، والظلم، والشرك.

يصف القرآن هذا النوع من «الإصلاح المريض» أو الظاهرة الإصلاحية المَرَضية بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]. ثم يرد عليهم القرآن مؤكِّدًا فساد ذلك

---

(١) أحمد عبد الفتاح: القاموس القويم للقرآن الكريم، ج٢، ص٢٢٣.

(٢) السيد عمر: مداخل الإصلاح في الأمة: جدالات الديني السياسي، حولية: أمتي في العالم، ٢٠٠٦، ص٧٧.

الإصلاح وأدعيائه ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٢].

فالمفسِد يدَّعي الإصلاح «قولًا»، بينما «حالًا» و«فعلًا» يقوم بكل ما يُضيِّع حدود الله وحقوق الناس في الأرض، ويسعىٰ في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والقيم والحقيقة، ويقيد الحريات، ويكنز المال ويصرفه في غير طرقه، ويظلم الناس ويعمل بعمل العاصين المنكِرين للغيب والحساب.

إن سيادة هذه الآفة المَرَضية في المجتمع هو سيادة لحالة من الضبابية الذهنية والقلبية لأفراد هذا المجتمع وأجياله القادمة، حيث يسود الادعاء الكاذب والباطل في مقابل تغييب الحقيقة والحق، فتُبنىٰ قواعد المجتمع علىٰ الاضطراب والبناء الرخو، فيسهل أمام أية موجة من الفيروسات مهاجمته؛ لأن البناء في ذاته ضعيف، لا يمتلك القوة علىٰ المواجهة والصمود، فتَفقِد كرات الدم الحمراء والبيضاء قُدرَتَها علىٰ العمل.

النفاق

(تغييب الحقيقة الاجتماعية)

النفاق هو ادعاء في الظاهر علىٰ خلاف الباطن، أو إظهار المرء خلاف ما يبطن. ورغم أن القرآن الكريم أَورَد حالات النفاق في غير موضع منه، إلا أنه -ولخطورة هذا المرض الاجتماعي- أَورَد سورةً كاملةً أسماها «الْمُنَافِقُونَ»(١)، حدَّ القرآنُ لتلك الفئة التي تحمل هذا «المرض الاجتماعي» وصفًا ورسمًا، هذه الفئة التي تصيب المجتمع في مكمن «الحقيقة الاجتماعية». ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ [المنافقون: ٣] وأنهم ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ

---

(١) وهي السورة رقم (٦٣) بالمصحف الشريف.

جُنَّةً﴾ [المنافقون: ٢] أي اتخذوا إعلان الإيمان (الكاذب) وقاية لهم في المجتمع يحميهم من إظهار حقيقتهم (النفاق). فهم يتلونون بما يحميهم: الكفر تارةً، والإيمان الكاذب تارةً أخرىٰ. .بحسب ما تقضتيه مصلحتهم العاجلة المادية المنحطة.

إن أول مخاطر «النفاق» وبروز ظاهرة «الْمُنَافِقينَ» هو تراجع الحقيقة الاجتماعية، واستبدالها بالزيف والكذب اللذين يسيطران علىٰ المجتمع حال تعرُّضه لهذا المرض الخطير. والأكثر خطورةً هو تقلُّد هذه الفئة (المريضة بالنفاق والكذب والمخادعة) مواضع ومناصب في توجيه الجماعة الاجتماعية في المجتمع وإرشادها.

إن «المنافقين» و«النفاق» أشد خطورةً علىٰ المجتمع من الأعداء، بل هم أكثر الأعداء أثرًا فيه؛ لأنه يأتي من داخل الجسد الاجتماعي، والإصابة تكون ذاتيةً من أعضاء ذلك الجسد، وليست من فيروس خارجي عنه يَسهُل معرفته والحذر منه والاستعداد والتهيئة لمقاومته حتىٰ لو بعد حين -عن طريق العلاج والأدوية المناسبة-، إلا أن مرض «النفاق» أشبه بمرض السرطان؛ حيث تتحول خلايا الجسد الحميدة -أو هكذا يجب أن تكون- إلىٰ خلايا خبيثة، وسرعان ما تَنشُر خبثها في باقي الجسد الاجتماعي حتىٰ يَهلك ويموت، وذلك لو لم يتم استئصال تلك الخلايا التي خبثَت للمحافظة علىٰ باقي الجسد سليمًا، وهذا يتوقف علىٰ سرعة الاكتشاف وقرار الاستئصال.

الواقع أن «المنافقين» يختلطون بالمجتمع وبين ثناياه ويكون من الصعب اكتشافهم بسهولة ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤]. فوسائلهم في إشاعة الكذب بين المجتمع وطريقتهم لها وقْعُها في النفوس بين العامة والخاصة علىٰ السواء، ومع ذلك فإن باطن هؤلاء «المنافقين» ضعيف جدًّا لدرجة أنهم ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾

[المنافقون: ٤] أي يحسبون كل صوت ضمير في المجتمع كأنه حربٌ عليهم وكشفٌ لأمرهم؛ وذلك لجبنهم وهلعهم وضُعفهم.

يحتاج المجتمع -للوقاية من هذا المرض وتلك الآفة المُهلِكة- إلىٰ جهاز «اكتشافٍ» لهؤلاء المنافقين، ﴿فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لتحذير المجتمع منهم ومن أبواقهم الكاذبة وحركتهم الفاسدة بين أعضاء المجتمع. وعمل هذا الجهاز هو بيان الحقيقة الاجتماعية ردًّا علىٰ الزيف والكذب الذي يروِّج له هؤلاء «الْمُنَافِقُونَ»، وكذلك بيان مواطن «المرض»، أي اكتشاف المنافقين مشخَّصِين وبيانهم لباقي الجسد الاجتماعي الذي يستنفر لمواجهتهم.

التفرق الاجتماعي

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]

إن الأصل في الجسد الاجتماعي هو الترابط والتكامل بين أعضائه، فالمجتمعات تحتكم في سيرها لمبدئية «التعاون» بين طبقات المجتمع وفئاته، فتحقيق أهداف المجتمع -المشتركة بين أعضائه- لا يمكنها أن تتم بغير هذا المبدأ القرآني: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]، وهذا التعاون هو المبدأ الطبيعي الذي نشأ مع تكوُّن الجماعات الاجتماعية الأولىٰ في تاريخ البشرية منذ بدء الخليقة: الأسرة، القبيلة، القرية، المدينة، الدولة. وإن تخلي المجتمع عن هذه المبدئية «التعاون» يعني أنه سيفشل في تحقيق أهدافه المشتركة في التاريخ.

إن «التفرق» أو «الفرقة» هو المرض الاجتماعي الأكثر تأثيرًا سلبًا علىٰ مبدئية «التعاون الاجتماعي»، ويظهر هذا المرض عندما يحاول أفراد المجتمع أو طبقاته البحث عن أهداف خاصة بهم تبلغ بهم مبلغ الاستقلالية عن «المجتمع» ويشعر كل فرد أو كل «فئة» أو كل «طبقة» بالتضخم في مقابل المجتمع الذي يتقزم في هذه الحالة. ويبحث كل من أولئك عن الوسائل التي

يحقق بها أهدافه الخاصة حتىٰ لو تجاوزَت أو تعارضت أو تخالفت مع أهداف المجتمع الأساسية والعامة والوجودية.

إن كيان المجتمع يتحلل تحللًا كليًّا، عندما يحتل المرض جسده الاجتماعي في هيئة انفصالات في شبكته الاجتماعية... ويتجلىٰ هذا المرض الاجتماعي في العلاقات بين الأفراد. وأكبر دليل علىٰ وجوده يتمثل فيما يصيب (الأنا) عند الفرد من (تضخم) ينتهي إلىٰ تحلل الجسد الاجتماعي لصالح الفردية... فالعلاقات الاجتماعية تَفسد عندما تصاب الذوات بالتضخم فيصبح العمل الجماعي المشترك صعبًا أو مستحيلًا، إذ يدور النقاش حينئذ لا لإيجاد حلول للمشكلات، بل للعثور علىٰ أدلة وبراهين تبرر المواقف الفردية والخيارات الشخصية[1].

يصف القرآن تلك الحالة بقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الرُّوم: ٣٢]، وهذه الآفة الاجتماعية من مخاطرها وتوابعها التاريخية عرقلة السير الحضاري للمجتمع الذي يخطها في سبيل تحقيق أهدافه الوجودية والتطورية في ذات الوقت. ويتجه المجتمع بفئاته وطبقاته إلىٰ التفكير الغريزي لإشباع احتياجاته الخاصة، وتتحلل أشكال الروابط الاجتماعية وضوابطها الحاكمة.

ويمكن أن نُعدد أشكال التفرق الاجتماعي وأبعاد ذلك المرض فيما يلي:

- التفرق في المرجعيات الفكرية الدافعة للسلوك الاجتماعي.

- تباين المثل العليا في المجتمع التي تنشد ناحيتها حركة السلوك والوعي الجمعي.

- التناقض (خلاف التنوع) في الوسائل المستخدمة للحركة الاجتماعية.

---

(١) مالك بن نبي: ميلاد مجتمع، ص٤٣.

- التعارض في الغايات الاجتماعية بين الأفراد والطبقات والنظم والمؤسسات.

تخسير «الميزان» الاجتماعي

يُحذر القرآن من آفة أخرىٰ وهي: تخسير «الميزان الاجتماعي»، وذلك في عدة مواضع، منها: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: ٩]، ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١]، وميزان المجتمع هو «المعيار» الذي يزن به أفراده حركتهم الاجتماعية، لذلك فإن دعوة القرآن إلىٰ كل أفراد المجتمع الذين يمسكون بهذا الميزان إلىٰ تحقيق العدالة والمساواة والحق فيه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]. فإن الشرائع الهادية توضح وتبين الموازين، ولكن الناس أي المجتمع أفراده وجماعاته هم الذين يتولون إقامة تلك الموازين وتطبيقها في حياتهم.

والميزان من: العدل والثبات والمساواة. ولغة هو "الآلة التي توزَن بها الأشياء"[(١)]. والتخسير في الميزان هو: التطفيف، والتطفيف هو كل ما يقابل: العدل والمساواة والثبات في معايير الوزن الاجتماعي.

ومن معايير «الميزان الاجتماعي» التي يخطها الوحي علىٰ سبيل المثال: ميزان العلم: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وهو سؤال استنكاري يستبطن أنه لا يستوي في ميزان الله ومِن ثَم في ميزان المجتمع: «العلم والجهل»، و«العالم والجاهل»، و«الأمة العالِمة والأمة الجاهلة»، و«الفرد العالِمُ والفرد الجاهل». فهذا ميزانٌ سننيٌّ، يُعلي من قدر العلم «القيمة»، والفرد العالِم والأمة العالِمة في مقابل مَن لا يعلمون. وطبيعة هذه

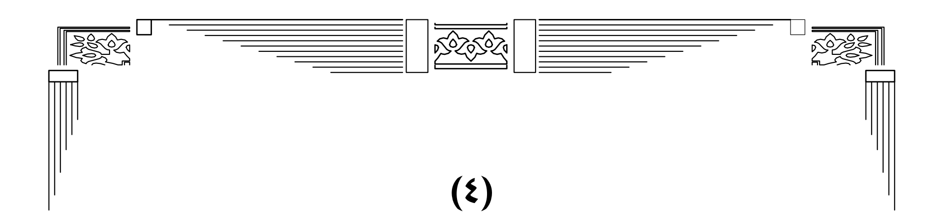
---

(١) المعجم الوسيط، ص١٠٣٠.

المعرفة: طبيعة إلهية (أي معرفة الله)، وبشرية (معرفة النفس)، وكونية (معرفة العالم)، فهذه معارف ثلاث ترتبط ببعضها ارتباطًا ترجح بمن يحملها بحقها. ويعرف دلالاتها وحججها، وقد عَدَّ القرآن ما يقرب من عشرة موازين اجتماعية -نفصِّل لها لاحقًا في دراسة منفصلة-.

إن التطفيف في الميزان الاجتماعي ينتج عنه حالة من تحلُّل المعايير جملةً: معايير القبول والرفض، والنجاح والفشل، والعلم والجهل، والعمل واللصوصية، والأمانة والخيانة، والصدق والكذب. أي يَفقد المجتمع كل آليات الضبط الاجتماعي بما يؤهِّل لحالةٍ من الفوضىٰ التامة أو الغثاء بوصف النبوة الراشدة.





(٤)

الضمير المجتمعي في القرآن وو ظائفه الحضارية

لكل مجتمع أدواته التي تنظم حركته ونشاطه من أجل المحافظة علىٰ بقائه ووجوده من ناحية، ومن أجل تحقيق أهدافه ومصالحه المشتركة في هذا الوجود من ناحية أخرىٰ. بيد أن هذه الأدوات تنقسم من حيث الشكل إلىٰ قسمين، الأول: ما هو مكتوب (ويسمىٰ: الدساتير والقوانين)، والتي تتضمن جملةً من البنود التي تَسالَمَ المجتمع علىٰ إقرارها (عبر عقود يختارها ويحددها) بما يحفظ وجوده واستمراره، وما تتضمنه من شروط مُنظِّمة لحركة الحياة وأنشطة الفرد والجماعة، وكذلك جوانب الثواب والعقاب بصورة مادية. أما القسم الثاني: فيتعلق بالأدوات غير المكتوبة والتي تسكن في وجدان وقِيم الأفراد في المجتمعات المختلفة، ولها نفس قوة التأثير في حركة الحياة في المجتمع، وربما تفوق الأدوات المكتوبة، لأنها هي التي تُنظم ما يُكتب وتُفصِّله وفقًا لوجدان جموع الناس التي تحيا في هذا المجتمع وقِيَمِهم، وهي التي يرتضي العقل الجمعي توريثها للأجيال القادمة.

وهذا القسم غير المكتوب -أو بالأصح المكتوب في وجدان الناس وقِيَمِهم ويتوارثونه- هو ما اصطُلِح علىٰ تسميته في العصر الحديث «بالضمير الجمعي» أو «المجتمعي»، أو بحسب إميل دوركايم (Collective conscience). ويقصد به الضمير الجماعي، والذي يعني عنده «العقل الاجتماعي المشترك» لأبناء المجتمع الواحد، وبالمعنىٰ الأخلاقي: ما يشترك فيه أعضاء المجتمع

كقِيَم أو مشاعر، وبالمعنىٰ النفسي هو: ما يهتز أو يلتهب بسبب «جريمةٍ» ما أو تعرُّض الوطن لأزمة أو كارثة، وبهذا الشكل يظل «الضمير الجماعي» جزءًا من «الوعي الجماعي» للمجتمع، الذي يُكوِّن بدوره جزءًا من ثقافة هذا المجتمع[١].

الضمير الجمعي له من التأثير في حركة المجتمع ما يجعله عاملًا رئيسًا في مسألة القبول والرفض لكل ما يعتري المجتمع من تغيرات، وهو الذي يحدد الصالح النافع والطالح الضار منها، وهو الذي يُسَهِّل مرور قِيم وأخلاق وأفكار جديدة، أو يمنعها ويقف أمامها حجر عثرة، خلاصة: هو الذي بيده مفاتيح التغيير الحضاري لمجتمع ما، وكذلك المانع من السقوط والانهيار الحضاري في حالة حيويته؛ نظرًا لما يمتلكه من قوة «المشترك» التاريخي والنفسي والأخلاقي في مكوِّنه الوجداني والعقلي والسلوكي.

في ضوء ما سبق يمكن القول: إن هناك عدة محدِّدات للضمير المجتمعي، وهي:

١- أنه يمثل كل ما هو «مشترك» وجداني وقِيَمي للوعي الجمعي.

٢- أنه معيار للهوية الثقافية الاجتماعية، ومعيار المرغوب والمقبول وغير المرغوب والمفروض.

٣- أنه مركز قبول التغيرات الآتية من الخارج أو رفضها.

٤- أنه ضرورة حضارية للمحافظة علىٰ كيان الجماعة والمجتمع من الانهيار أو التلاشي.

٥- أنه يقوم بضبط اتجاه حركة المجتمع وتوجهاته.

٦- أنه ضاربٌ في عُمق التاريخ للمجتمع، وكذلك في عُمق المعتقَدات والقِيَم الأساسية.

---

(١) سامي خشبة: مصطلحات فكرية، ص٣٥٨.

بناء الضمير الجمعي في القرآن

تقوم فلسفة الضمير الجمعي في القرآن علىٰ التعاضد والتلاحم المجتمعي، تحت عنوان «الولاية»، أي ولاية المؤمنين والمؤمنات لبعضهم البعض ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التَّوۡبَةِ: ٧١]، وما تَتبَعه تلك الولاية من واجبات تكليفية عامة للجماعة المؤمنة في المجتمع، وهذه الواجبات هي: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة الله والنبي ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ﴾ [التَّوۡبَةِ: ٧١] .

والولاية هنا تعني القيام بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) من قِبَل المؤمنين -كل المؤمنين- من خلال تهيئة المجتمع لقبول هذه القضية المهمة في واقع المجتمع، أو السعي لهذا التمكين والتهيئة لهذه القضية، ومِن ثَم فإن الضمير المجتمعي في القرآن يقوم علىٰ الوعي بالمسؤولية الواجبة (التكليف) من قِبل (المكلَّف) بها مِن قِبل الله تعالىٰ دون انتظار عقودٍ أو وظائف لهذا الواجب الشرعي - المجتمعي.

إن تلك الولاية تتعلق بالمصالح العامة في المجتمع، وترتبط بحقوق الله تعالىٰ -كتلك- التي يتعلق بها النفع للناس جميعًا من غير اختصاصٍ بأحد، فهي ولاية عامة. إن صح هذا الإطلاق، بمعنىٰ أن مَن يقوم بهذه الوظيفة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) إنما يمارسها قيامًا بحق عام للمجتمع يتعلق بمصلحة جماعية فيه، والحق العام للجماعية هو أحد جناحي الحقوق فيها، حيث يتوازىٰ ذلك الحق مع الحق الخاص للأفراد، وبدون المحافظة علىٰ الحق العام لن يستطيع الفرد أن يتمتع علىٰ نحو تام بحقه الخاص[1].

---

(١) عبد الله مبروك: الحسبة، كتاب الأزهر، ص١١.

القرآن ومركزية الواجبات

القرآن -دائمًا- يقدم فكرة الواجبات علىٰ الحقوق، لذا نجد الوحي -في كثير من خطابه للمؤمنين أو الناس علىٰ وجه العموم- يطالبهم بما عليهم من واجبات يجب تأديتها، سواء كانت تلك الواجبات نحو الله تعالىٰ كما في قوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]، أو نحو الناس - وهي الكثرة الغالبة في الوحي كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ [النساء: ٥٨]، ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٨٥]، فواجب الفرد نحو الجماعة -ومِن ثَم نحو المجتمع الأكبر- من ثوابت الخطاب القرآني، وكثافة هذه الواجبات الواضحة تَظهرُ للقارئ العارضِ، كما تظهر للملاحظ الدقيق.

من هنا أسَّس الفقهاء فكرة «الفروض الكفائية» التي يجب أن تقوم بها الجماعة المؤمنة في المجتمع المسلم، والتي لا يستقيم حال المجتمع/الأمة إلا بأدائها، بل يرىٰ البعض أن هذه الفروض الكفائية التي يجب أن يؤديها «الضمير الجمعي» نحو الأمة هي أخطر وأكثر ضرورةً للأمة من الفروض العينية، ونقصد هنا علىٰ الترتيب وليس التشريع.

و«الفرض الكفائي» هو ما يلزم جميع المسلمين القيام به، وإذا قام به بعض المسلمين أُعفي الباقي من القيام به، مثل الجهاد وصلاة الجنازة، أو كما يعرِّفه أبو حامد الغزالي بأنه: "كل مهم يريد الشرع حصوله، ولا يُقصد به عين من يتولاه". وهذا بخلاف «الفرض العيني» الذي يجب علىٰ كل مسلم القيام به، كالصلاة والزكاة والصيام.

يرىٰ البعض أن الفروض الكفائية أهم وأكثر خطورة للمجتمع والأمة من الفروض العينية، وذلك نظرًا إلىٰ عِظَم آثارها وتمدُّد مساحات نتائجها، فالواقع أن هذه الفروض المسماة بالكفائية لا تقل عن الفروض العينية في المرتبة من حيث نظرة الشرع إليها، وهي لا تختلف عنها في طبيعتها من حيث إن كليهما

(العيني والكفائي) مقصود من الشارع ومتحتم حصوله، وأن كلًّا منهما جزء ذاتي من الشريعة التي أمر الله سبحانه بحفظها وتنفيذ أحكامها. والفروض الكفائية تتفق مع العينية -أيضًا- في أن عدم القيام بها مثل الأخرىٰ يترتب عليه: إما الوقوع في الإثم، أو الفسق، أو حتىٰ الكفر -بحسب أي مذهب من المذاهب الفقهية-، بل إن التبعة التي تترتب علىٰ تعطيل هذا (الكفائي) أو الإخلال به أفدح من تلك التي تنشأ نتيجة عدم أداء الفرض (العيني)؛ إذ إن التبعة الأولىٰ تعم الأمة بأسرها، ويلحق الإثم بها كلها: فتوصف بأنها عاصية، أو قد تُنعت بالفسق، أو بما هو أخطر من ذلك، إن قُصِّر في القيام بأداء هذه الفروض الكفائية ولم يُوفَّ بها(١).

أما عن أهم الفروض الكفائية التي يجب علىٰ الأمة القيام بها فهي: إقامة الدولة، والقضاء، والنظر في المظالم، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام بعلوم الدين والدنيا، وتوفير وسائل العمران، والتكافل الاجتماعي، وغيرها مما يحفظ كيان الأمة ووجودها ويحفظ حيويتها وأداءها لرسالتها وبلاغها إلىٰ العالمين، وفقًا لتطورات كل عصر ومتغيراته ومستجدات الاحتياجات والمتطلبات.

كما عَرف الفقه الإسلامي-أيضًا- مفهوم «الحق العام» المتعلق بمصالح المجتمع مما يجب أن يُحفَظ، وأن هذا الواجب يقع علىٰ عاتق كل إنسان حتىٰ لا تتطاول يد العابثين إليه بما يخزيه؛ لأن أفراد المجتمع ركاب سفينة واحدة، وأصحاب هدف مشترَك ووحدة مصير(٢).

ثم كانت أيضًا «المصلحة» من أدلة الشرع والتكليف، وهي ثابتة بأدلة الشرع والعقل وسيرة العقلاء، إن النفع ودفع الضرر هو غاية الشرع والعقل في كل زمانٍ ومكانٍ، وبهما يُحكم بين الناس في معاشهم وحياتهم، و«المصلحة» تقوم كذلك علىٰ نفي الضرر ودفعِهِ والسعي نحو المنفعة والحفز إليها بما يحقق

---

(١) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية، ص٢٦٤.

(٢) عبد الله مبروك: الحسبة ودور الفرد فيها، كتاب الأزهر، ص٢٤.

سعادة المجتمع كله وسعادة أفراده، وهو ما يتطلب بدوره معرفة ما يحقق صالح المجتمع في حاضره ومستقبله القريب والبعيد.

الوظائف الحيوية للضمير الجمعي في القرآن

إن فكرة الضمير الجمعي -كما تَقدَّم- قامت لتحقيق ثلاثة أمور للجماعة الاجتماعية والأمة، الأول: حفظ البقاء، والثاني: حفظ النماء، والثالث: حفظ الأداء.

وحفظ البقاء: أي حفظ كل ما من شأنه أن يقوم عليه المجتمع من مقومات وجدانية وعقلية ومادية، وهذه المقومات مركوزة في نفس الضمير المجتمعي عبر التاريخ والأفكار.

وحفظ النماء: أي حفظ كل ما من شأنه أن يطوِّر المجتمع ويسهِم في ترقية أفراده، ويَضمن لهم عدم تخلُّفِهم عن السير الإنساني العام في ضوء مقوِّمات البقاء والوجود، أي أن حِفظ النماء هو ما يضمن من وجه آخر الاستمرار والوجود؛ لأن ما يجمد يثبت ومن يثبت يتوقف ويموت.

وحفظ الأداء: أي حفظ كل ما من شأنه أن يؤهل المجتمع للقيام بأداء رسالته الحضارية التي يحملها للبشرية، وفي المجتمع الإسلامي هو ما يضمن أن يقوم بالبلاغ والشهود علىٰ العالمين.

يأمرون ويَنهَون

تقع وظيفة الضمير المجتمعي في القرآن بين فعلين رئيسين، هما: (يأمرون، وينهون)، والأول: يُقصد به التوجه نحو فعل المعروف، الذي هو مبدأ كل خير يعود علىٰ الجماعة ومِن ثَم علىٰ الفرد داخل المجتمع، بما يسهِم في تشييد مقومات البناء الإيجابي، والثاني: (النهي) ويُقصد به الدعوة إلىٰ منعِ

كل شرٍّ يعود أثره علىٰ الجماعة ومِن ثَم علىٰ الفرد، وبالتالي يكون عائقًا لكل حركة وكل نشاط في المجتمع نحو البناء والتشييد، بل ربما نحو وجود المجتمع نفسه واستمراره حسب خطورة هذا المنكر/الشر ومساحته وامتداداته.

يبين التحليل اللفظي لنا ماهية «المعروف» وماهية «المنكر» في إطارهما العام، فـ«المعروف»: "اسم لكل فِعل يُعرف حُسنُه بالعقل أو الشرع"(١)، و«المنكر»: "كل ما تَحكُم العقول الصحيحة بقبحه"، أو: "يقبحه الشرع أو يُحرمه أو يُكرهه"(٢) (*)، فالمعروف اسمٌ جامعٌ لكل ما ينبغي فِعله من الخير، والمنكَر اسمٌ جامعٌ لكل ما ينبغي تركُه من الإثم أو المعصية أو غير ذلك مما يؤدي إليهما.

وقد ورَدَت لفظتا (النهي، والأمر) مرتبطتين في القرآن (٨) مرات في الآيات علىٰ الترتيب: [آل عمران: ١٠٤]، [آل عمران: ١١٠]، [آل عمران: ١١٤]، [الأعراف: ١٥٧]، [التوبة: ٧١]، [التوبة: ١١٢]، [الحج: ٤١]، [لقمان: ١٧].

جاءت الآية الأولىٰ تبين أن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تقوم بها فئة أو طائفة من المؤمنين ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أما الآيات الثانية والثالثة والخامسة والسابعة علىٰ التوالي فجاءت توضح أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هما من وظائف وصفات الجماعة المؤمنة علىٰ أساس أن الخطاب لجميع المكلَّفين ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، والآيات: السادسة والثامنة للفرد المؤمن ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾، أما الآية الرابعة فجاءت تبين وظيفة النبي في الجماعة المؤمنة، وهي أمرهم بالمعروف ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾.

---

(١) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، جـ٢، مرجع سابق، ص: ٥٩٥.

(٢) المرجع السابق، ص: ٩٥٣.

(*) انظر -أيضًا - ابن منظور، لسان العرب، جـ٩ مادة (عرف)، جـ١٤، مادة (نكر).

بينما جاء الارتباط الوحيد المخالف للمعنىٰ والمبنىٰ في سورة [التوبة: ٦٧] ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ﴾ كوظائف وصفات للمنافقين.

إن التأمل العابر لقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -كتعبير عن الضمير الجمعي في القرآن- نَخلص من خلاله بعدة ملاحظات منها:

١- أن مبدأ «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» كان واجبًا علىٰ الأمم السابقة، أي أنه من أصول الشرع التي لم تُنسخ في شريعة الإسلام.

٢- أن فرْض هذا المبدأ إنما جاء بهدف مواجهة «الفساد» و«الانحراف الذي يضر الصالح العام أو المجتمع».

٣- أن هذا الفرض جاء -أيضًا- من أجل إحداث تغيير اجتماعي تربوي في نفسية الإنسان وسلوكه.

٤- أن المنوط بهذا الفرض هو المجتمع كله، علىٰ أساس عموم الخطاب للمؤمنين، بدرجاتٍ مختلفةٍ وأدواتٍ ملائمةٍ لكل موقعٍ للمخاطَبِين.

٥- إن التقاعس عن القيام بتطبيق هذا المبدأ من شأنه أن «يشيع» الانحراف والفساد في جنبات المجتمع.

إن المجتمع الإنساني يتقلب في حالاته وفقًا لسُنة التدافع التي تحفظ الجماعة البشرية من الهلاك التام، والضمير الجمعي يكون علىٰ متصل النقيض لكل ما من شأنه أن يدفع المجتمع نحو الهاوية والهلاك، ومِن ثَم فإن وظيفة الضمير المجتمعي -كما يبين القرآن في ضوء مبدئية الولاية والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- هي مواجهة عوامل الهلاك: أفكار، أشخاص، أحداث، بيان الحقائق التي يحتاج إليها المجتمع لضمان البقاء والنماء والأداء.

عطالة الضمير المجتمعي

ينبه القرآن في تسجيل لحادثة تعطيل الضمير الجمعي وتعطيل وظائفه بين هذين الفعلين (الأمر والنهي) الاجتماعي علىٰ أنه من عوامل هلاك الأمم، وفيها يقول تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩].

تبرز هذه الحادثة تحوُّل الضمير الجمعي إلىٰ مصدر (للمنكر) فاستحق الجميع العقاب والهلاك والتيه، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَىٰ الرَّجُلَ، فَيَقُولُ: يَا هَذَا، اتَّقِ اللهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ، فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ، فَلَا يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ**»(١).

يوضح القرآن في تسجيلٍ آخَرَ أن من يقوم بهذه الوظيفة (الضمير المجتمعي) بشروطها وأدائها يتجنب الهلاك أو سوء العاقبة التي تعود علىٰ الفاسدين الذين يسعون إلىٰ تخريب عمران المجتمع والمسالمين لهم غير فاعلي الأمر والنهي المذكورين: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ۝١٦٤ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥]، وهذه النجاة لا شك في الدنيا وفي الآخرة.

---

(١) أخرجه أبو داود، باب: الأمر والنهي (٤٣٣٦)، والبيهقي في الكبرىٰ، باب: ما يستدل به علىٰ أن القضاء وسائر أعمال الولاة مما يكون أمرًا بمعروف أو نهيًا عن منكر من فروض الكفايات (٢٠١٩٦)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٨٢٢).

إن الخبرة الاجتماعية تؤكد عِظَمَ وخطورة ما يصيب الضمير الجمعي من أمراض وآفات وتعطُّل؛ لأن ذلك خطورته لا تمس فردًا أو جماعةً أو فئةً أو طائفةً من المجتمع؛ بل تمس المجتمع كله وتعرِّضه لخطر الانهيار، والفئات والسقوط المزري في القاع الحضاري للبشرية.

من يجسد الضمير المجتمعي؟

أَوضَح القرآن أن الذي يجسد/يمثل الضمير المجتمعي، هو ذلك الشخص (فردًا أو طائفةً أو أمةً) الذي يمتلك الدراية الاجتماعية، ويكون لديه المعرفة الكاملة بكل ما يساهم في جلاء الحقيقة الاجتماعية، وفي الوعي بعناصر حياة المجتمع وذخيرته المعنوية والفكرية، وكذلك الوعي بكل وسائل التضليل الاجتماعي والاقتصادي والديني والسياسي حتىٰ يكتمل الوعي بكل ما هو إيجابي لحياة المجتمع وكل ما هو سلبي يمكن أن يضر المجتمع ويسبب انهياره، ومِن ثَم يمثل الضميرَ المجتمعيَّ كلُّ مَن يمتلك تلك الحقيقة الاجتماعية والمعرفة الكاملة.

إن الفئة الوحيدة التي خصَّصها القرآن بالتوجيه -أو بالأحرىٰ اللوم علىٰ عدم قيامهم بواجبها وبوظيفتها في هذا التمثيل ووجَّه لها توبيخًا مباشرًا لهذا النكوص والنكوث- هي فئة «الربانيون والأحبار»، وهو ما يبدو أنهم أكثر فئات المجتمع وظيفيةً وتأهُّلًا للقيام بتجسيد الضمير الجمعي وتمثيله في المواقف اللازمة والخطرة في حياة المجتمع؛ لذا فإن القرآن يعبِّر عن اندهاشه بعدم القيام بهذا الدور، يقول تعالىٰ: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [المَائِدَة: ٦٣]. والربانيون والأحبار هم الأئمة والعلماء، وقيل -أيضًا-: الفقهاء والقراء.

هذه الفئة (الربانيون والأحبار) يمثلون قمة الهرم العلمي والمعرفي والاجتماعي بالتبعية في المجتمع المشار إليه وهم (اليهود) -ولكنهم أيضًا

كذلك في كل مجتمع-، وذلك بما ائتُمِنوا وتَعلَّموا واستُحفِظوا مِن قِبل الله تعالىٰ بكلماته وكُتبِه وما فيها من هدىٰ ونورٍ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًاۚ﴾ [المَائِدَة: ٤٤].

وقد أوصاهم الله في هذا العلم الذي استُحفِظوه وأُحفِظوه بأمور:

١- أن يكونوا شهداء علىٰ الناس، أي بأمرهم بالخير ونهيهم عن الشر، وإرشاد الناس إلىٰ طريق الحق ونهيهم عن طريق الضلالة.

٢- ألا يساووا خشية الله بخشية الناس، في قول الحق وأمر الناس به ونهيهم عن المنكر وتحذير الناس منه؛ فإن الناس لا يملكون نفعًا ولا ضرًّا، وهم في ذلك بمثابة أنبياء لهم في الوظيفة التي يؤدونها نحوهم وهي الهداية والإنقاذ من الضلال.

٣- ألا يُفرِّطوا في عِلمهم الذي تَعلَّموه من الله، فضلًا عن أن يضيعوه ويستبدلوا به ثمنًا قليلًا، بتواطئهم مع الباطل والمحرِّفين.

إن حمل هذه الفئة «الربانيون والأحبار» كل هذا العلم وتلك المعرفة وهذه المسؤولية جعَلَها في قمة هرم المجتمع تمثل ضميره القادر علىٰ ردِّه إلىٰ الاستقامة إذا اعوَجَّ، وإلىٰ القيام إذا سقَطَ، إلا أن الذي حدث غير ذلك، حيث ترك هؤلاء العلماء النهي عن قول الكذب والزور والعدوان وأكل الرشىٰ في الحكم، فاعتَبَرهم القرآن في مهلكةٍ كالفاعل، ويعلِّق القرطبي علىٰ هذه الآية بقوله: "إن تارك النهي كمرتكِب المنكَر". وهنا يسجل القرآن أكبر توبيخ للعلماء في القرآن حيث أنهىٰ الآية: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المَائِدَة: ٦٣] وهو عائد علىٰ هذه الفئة «الربانيون والأحبار».

نماذج تجسيد الضمير المجتمعي في القرآن

نختم بذكر أربعة نماذج قرآنية لبيان فاعلية «الضمير المجتمعي» في أدائه الدور الوظيفي، التي انطلَقَت من شعوره بالمكانة والمسؤولية.

النموذج الأول: مؤمن آل فرعون

إن الضمير الجمعي يظهر وقت الحاجة إليه، أي عند الضرورة، أي أن وجوده كامن في وجدان المجتمع ولكن فاعليته والإحساس به تظهر حين الخطر الحقيقي الذي يحدق بالمجتمع، كما أننا لا نشعر بغياب الشمس إلا عند الحاجة إلىٰ ضوئها، ولعل ضرورة بيان الحقيقة للناس، أو الإحساس بتعرضها لخطر الاغتيال والتصفية هو أكثر المواقف ضرورةً لعمل «الضمير المجتمعي» حتىٰ وإن حَمَله فردٌ واحدٌ، كما في حالة مؤمن آل فرعون الذي كان يكتم إيمانه هو وآخرون، فكان هنا بمثابة ضمير هذه الجماعة المؤمنة من ناحيةٍ، وضمير المجتمع الذي أراد فرعون تعمية الحقيقة عنه. يقول تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غَافِر: ٢٨].

النموذج الثاني: نموذج مؤمن آل ياسين

وهو أحد النماذج التي ضرب الوحي بها مثلًا لحادثة تاريخية وقعت بالفعل في بيان حركة الضمير المجتمعي وفاعليته تجاه ما يهدد المجتمع من مخاطر التكذيب بالهداية والإيمان بالضلالة ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [يسٓ: ٢٠-٢١]. حتىٰ وإن كان الثمن هو التضحية بالنفس، فإن ذلك واقع في

تاريخ المجتمع ووجدانه ومخزونه النفسي الممتد، وميراثه من الفضيلة والمعرفة والهداية لمن سيأتي من الأجيال التالية.

النموذج الثالث: الأمة الواعظة

سجَّل القرآن هذه الواقعة في بني إسرائيل -أيضًا- أكثر الأمم عصيانًا وتمردًا ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤-١٦٥].

يوضح القرآن -هنا- مكانًا جديدًا للضمير المجتمعي وحالةً أخرىٰ، وهي الانقسام بين الفاعلية وبين السكوت والاستسلام، وهو هنا يبين حالة المجتمع المنقسم بين ثلاث طوائف: طائفة عاصية لله وتُفسد في المجتمع بعصيانها، وطائفة تأمر بالرشد وتنهىٰ عن المعصية والفساد، وطائفة اعتزَلَت هذه وتلك مع عِلمها بالفساد وعدم قبوله، إلا أنها ظلت صامتةً غائبةً عن دورها ووظيفتها في الأمر والنهي، وهي هنا تمثِّل حالةً من ضميرٍ استَسلَم وقَعد عن واجبه، في مقابل تلك الطائفة التي قامت بدورها ووظيفتها في إعذارٍ إلىٰ الله وإلىٰ المجتمع. ويعلن القرآن النتيجة النهائية وهي هلاك الطائفة الأولىٰ والثالثة، ونجاة الطائفة الثانية التي استجابت لصوت ضميرها في إعلان الحق بالأمر والنهي.

النموذج الرابع: سحرة فرعون

مثالٌ لتكوين الضمير الجمعي الصادر عن المعرفة والتوصل إلىٰ الحق، وهو نموذج يأتي في مقابل «الربانيون والأحبار» الذين علِموا وعرفوا الحق ولكنهم استبدلوه بثمن قليل، وباعوا آيات الله بمقابل بخس، ولكن الضمير اليقظ الذي يملك القدرة علىٰ تبيُّن الحق من الضلال والحقيقة من الزيف،

ويشعر بالمسؤولية تجاه بيان الحقيقة التي توَصَّل إليها للمجتمع في حاضره ومستقبله، وتاريخه -أيضًا- الذي يسجل مثل هذه اللحظات الفارقة في حياته.

يقدم هؤلاء السحرة سابقًا «الربانيون» بعد اكتشافهم الحق، بيانًا نابعًا من ضميرهم الجمعي يسجله الوحي، أعظم كتاب للتسجيل في التاريخ، أما مفاد هذا البيان فهو:

١- ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢].

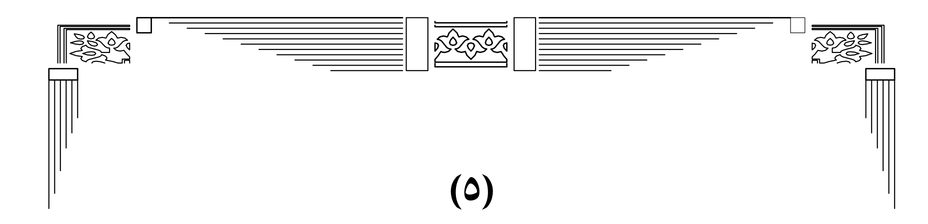
٢- ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣].

٣- ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤].

٤- ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه: ٧٥].

٥- ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه: ٧٦].





(٥)

القرآن والأسرة

تعاني الأسرة المعاصرة -ومن بينها الأسرة المسلمة- من حالة اضطراب شديد في المعنىٰ والمبنىٰ والمآل؛ إذ تأثَّرَت سلبًا بعمليات الحداثة قسرًا، أو بالأحرىٰ عمليات التحديث التي مورِسَت عليها مِن قِبل العولمة وأدواتها التي لم يعد بيتٌ من بيوت المسلمين إلا وفيه مجموعات من تلك الأدوات، بل أصبحَت ركنًا ركينًا لا تستطيع أُسَرُنا الاستغناء عنه، هذا في مقابل ما نلمسه جميعًا من توترات نشأَت جرَّاء تمكُّن هذه الأدوات من وجدان الأسرة المسلمة وأخلاقها، ظهرَت في سلوكيات الأزواج تجاه بعضهم البعض من ناحية، وتجاه مسؤولياتهم نحو أبنائهم من ناحية أخرىٰ، كما ظهرت في سلوكيات الأبناء تجاه آبائهم من ناحية وتجاه مجتمعهم وأمَّتِهم من ناحية ثالثة.

ويكفي ما نقرؤُه في التقارير المتخصصة حول نِسب الطلاق التي تزيد يوميًّا، وما ينتج عنها من حالات التفكك الأسري وتفاقُم مخاطره علىٰ الأبناء والمجتمع، وكذلك ما نقرؤُه عن جرائم العنف الأسري بين الأزواج بعضهم وبعض، أو بين الأبناء وبين والديهم من ناحية أخرىٰ.. بما يجعلنا نؤكد أن منظومة القيم الأسرية في المجتمعات المسلمة في خطر شديد بسبب اختراق القِيَم الغربية في أقصىٰ وأقسىٰ رذالتها أُسَرَنا المسلمة، وهو الأمر الذي يدعونا إلىٰ تجديد الدعوة إلىٰ إعادة بناء الأسرة المسلمة وترميمها وفق منظورها القِيمي والحضاري، الذي يمثل سفينة الإنقاذ الوحيدة في هذه الأمواج المتلاطمة من التفتت القِيَمي العالمي والمحلي.

نتناول هنا ما يتعلق بمسارات تجديد النظرة إلىٰ بناء الأسرة مفهومًا ومنطلقًا ومرتكزًا، وذلك من خلال تجديد النظر إلىٰ مفهوم الأسرة في ضوء

المنظور القرآني، وما يرتبط بها من أبعاد ومسؤوليات مجتمعية ودنيوية وأخروية متعددة، وتجديد النظرة إلىٰ الإطار الحاكم للحقوق والواجبات، وطرح بعض الإشكاليات الخاصة بالأسرة ومكوناتها وعلاجها من المنظور القرآني.

يقوم المنظور القرآني في تَصوُّرِه للأسرة علىٰ مبدئية مكانة الإنسان في الكون ودوره ووظيفته العمرانية فيه، ومِن ثَم كانت منظومة المجتمع وحركتُه وبناؤه مصدرَ اهتمام من النظام القرآني، حيث وَفَّر لها من التشريعات والأخلاق والأسس ما يساعد علىٰ قيامها واستمرارها في أداء حركتِها وفِعلها الإنساني العمراني؛ وذلك لأن هذه المنظومة الاجتماعية هي المكلَّفة بأداء الوظيفة الأخلاقية الإلهية علىٰ الأرض.

من حيث المفهوم؛ فإن الأسرة في الفضاء اللغوي تعني «الدرع الحصينة»، ويحمل مفهوم الأسرة -أيضًا- في اللغة معنىٰ الأسر أي التماسك والقوة، وأسرة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنون، لأنه يتقوىٰ بهم. وجاء القرآن الكريم معبِّرًا عن الأسرة بألفاظ متعددة يتبين منها النظرة الاجتماعية لمهمة الأسرة ووظيفتها، ومنها: الزوجية ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، والأهل كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]. وفي السنة جاء لفظ (الأهل) -أيضًا- ليدل علىٰ (الأسرة): **«كُلُّكُمْ راعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، الإمامُ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ راعٍ في أهْلِهِ وهو مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمَرْأَةُ راعِيَةٌ في بَيْتِ زَوْجِها ومَسْئُولَةٌ عن رَعِيَّتِها، والخادِمُ راعٍ في مالِ سَيِّدِهِ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ قالَ: -وحَسِبْتُ أنْ قدْ قالَ- والرَّجُلُ راعٍ في مالِ أبِيهِ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، وكُلُّكُمْ راعٍ ومَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ»**[1].

ويُعَد اهتمام النظام الاجتماعي القرآني في المجال الأسري متفردًا لأمرين: الأول؛ في ملائمته للفطرة الإنسانية في إقراره العلاقة المعنوية

---

(١) أخرجه البخاري، باب: الجمعة في القرىٰ والمدن (٨٩٣)، ومسلم، باب: فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩)..

والمادية بين الذكر والأنثىٰ في صورةٍ أسماها «الميثاق الغليظ»، وطرح الوجدان كأساس لهذه العلاقة «المودة والرحمة».

من الناحية المعرفية يقوم المنظور الاجتماعي القرآني للأسرة علىٰ المبادئ والأسس التالية:

١- مبدئية فكرة «الاستخلاف»: أي استخلاف الإنسان في الأرض ليقوم بمسؤوليات ومهام حدَّدَها المستخلِف -وهو الله تعالىٰ-، وهي عمران هذا الكون ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هُود: ٦١]، وتعبيد الكون لله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذَّارِيَات: ٥٦]، ومِن ثَم فإن تكوين الأسرة هو أول خطوة لتحقيق هذا العمران وفقًا للمنهج الإلهي، الذي يتربىٰ عليه الفرد داخل الأسرة، وتمثل الأسرة لهذا الإنسان المحضن الأساسي والمؤسسة الأكثر فعالية لتعليم واجبات الاستخلاف ووظائفه، ولهذا أكَّدَت جميع الشرائع السماوية علىٰ مشروعية تكوين الأسرة، بل وضرورتها للوجود الإنساني الذي لا يستقيم في أدائه لوظائفه علىٰ الأرض دون هذا التكوين.

٢- أما «الزواج» باعتباره المسار الشرعي الوحيد لتكوين الأسرة فقد أُطلق عليه في القرآن «الميثاق الغليظ»، والميثاق في ذاته: «العهد المحكم»، وإضافة «الغليظ» إليه لإبراز قداسته وقوته إذا انعقد، وعليه فالزواج في المنظور القرآني يكون أحد طرفيه (الزوجين) والطرف الآخر هو (الله تعالىٰ)، ومن هنا يتمايز المنظور القرآني بهذا الركن «ركن الغيب» في تكوين الأسرة الإنسانية، وهذا يعني -أيضًا- أن حالة البناء وحالة نشاط الأسرة وحركتها الاجتماعية يضاف إليها -أي إلىٰ بُعدِ الشهود الذي هو المجال الحيوي لعمل الأسرة- بُعدٌ أساسي وجوهري آخر وهو «بُعد السماء» أو «بُعد الغيب»، ويؤثر هذا البُعد في أهداف الأسرة ووظائفها وأدوار أعضائها، كما يؤثر علىٰ نوعية الحياة المنشودة وشكلها، وطبيعة النظر إلىٰ الوسائل المادية وعالم الأشياء الذي يرتبط -حتمًا- بوجود الأسرة واستمرارها.

٣- الأسرة ومقتضىٰ التوحيد: إن الإسلام يرىٰ أنه لا غنىٰ عن الأسرة لتحقيق مراد الله تعالىٰ من البشر في هذه الحياة الدنيا، إن مقتضىٰ التوحيد -أو ما يترتب عليه- هو النظر إلىٰ أن أوامر الله فريضةٌ ملزِمةٌ، الأمر الذي يَستَتبِع بدوره السعي لإيجاد المواد التي تجسد القِيَم الكامنة في تلك الأوامر... والواقع أن الله تعالىٰ لم يأمر الإنسان بتجسيد تلك القِيَم في أرض الواقع فحسب، بل شفع ذلك ببيان وسيلة تحقيقها، وضوابط الوفاء بها ولوازمه، متمثلة في الأسرة وشبكة العلاقات التي تنشأ عنها[1].

٤- يقوم المنظور القرآني في النظر إلىٰ الرجل والمرأة نظرةً مساواتيةً تامةً من حيث المبدأ: مساواة في الخِلقة والنشأة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾ [النساء: ١]، مساواة في التكاليف العبادية وما يَتبَعها من مساواةٍ في الجزاء والحساب ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ...﴾ [آل عمران: ١٩٥]، مساواة في التكاليف الاجتماعية ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [التوبة: ٧١]، كذلك المساوة في الأهلية وحق التملك والتصرف والنشاط الاقتصادي.

٥- كذلك أيضا مارَسَت المرأة -علىٰ وجه الخصوص- كل حقوقها -في هذا المنظور عندما أتيحت لها فرصة التطبيق في الواقع الاجتماعي- فمارَسَت حقها في التعليم والجهاد والعمل والنشاط السياسي، والخبرة التاريخية توضح ذلك بصورة مكثفة وواضحة.

٦- أما التمايز بين الرجل والمرأة -سواء في الشكل أو الجنس أي الذكر والأنثىٰ- ففي جوهر هذا المنظور تعني التكامل لا الصراع أو المنافسة ذات المخاطر -التي تشجع عليها بعض الاتجاهات النسوية المعاصرة- فالمرأة

---

(١) إسماعيل الفاروقي: **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ص: ٢٨٨.

والرجل هنا خُلِقَا لتحقيق وظيفتين مختلفتين ولكن متكاملتين: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ﴾ [النِّسَاءِ: ٣٢]، فوظائف الأمومة المتمثلة في الرعاية المنزلية وتربية الأطفال، ووظائف الأبوة المتمثلة في حماية البيت وتزويده بمتطلبات المعيشة، والقوامة العامة، استدعت اختلاف الرجل عن المرأة في البنية الجسدية والنفسية والعاطفية، ودور المرأة -كما هو دور الرجل- خاضع علىٰ قدم المساواة مع نظيره للأحكام الدينية والأعراف الأخلاقية، ويستدعي كلاهما من صاحبه استخدام كل ما أوتي من الذكاء والموهبة والطاقة والقدرة علىٰ العطاء من أجل القيام به.

٧- وظيفة الأسرة في رعاية أفرادها وتكامل أدوارهم هو الأساس الفطري والحيوي والنفسي لعلاقات أفراد الأسرة الإنسانية، وعدم إدراك المبدأ الإسلامي في تكامل أفراد الجنس البشري عامة، وأدوار أعضاء الأسرة بشكل خاص يؤدي إلىٰ عدم فهم بناء الأسرة المسلمة وعدم إدراك أدوار كل عضو فيها، ومن الأخطاء المعرفية في إدراك أدوارِ الأسرةِ تَصوُّرُ «التماثل» في الأدوار علىٰ أطراف العلاقة الأسرية؛ لأن ذلك منطلَقٌ خاطئٌ من ناحية الحقيقة الفطرية، وتشويهٌ للوظيفة الأسرية، وجورٌ علىٰ حاجات أطراف العلاقة وحقوقهم، مما يسيء إليهم، ودون الفهم السليم لدور لفطرة في بناء الأسرة المسلمة، المبنية في رؤيتها التشريعية علىٰ الاستجابة للفطرة التي تَكمُن في تكوين الأسرة الإنسانية وحاجاتها الوظيفية[1].

٨- من جهة أخرىٰ؛ فإن هذا التمايز في الأدوار لا يتعلق بمجالات النشاط الإنساني التي يتشابك فيها دورُ كلٍّ مِن الرجل والمرأة، ولا بالمجالات الأخرىٰ التي لا تتشابك فيها أدوارهما، ومن الممكن أن تقوم المرأة بأنشطة

---

(١) عبد الحميد أبو سليمان: **أزمة الإرادة والوجدان المسلم**، دمشق، دار الفكر، ٢٠٠٤، ص٢٣٦.

ذكورية في الأصل أو العكس، وأن يَعبُرَ أيٌّ منهما إلىٰ فضاء نشاط الآخر، فيما لو تَوفَّرَت قابليات فطرية تجعل ذلك أمرًا ممكنًا، أو طرَأَت ضرورةٌ تجعله مفيدًا، شريطة عدم الإخلال بالتمايز الرئيس الذي أَودَعَه الله تعالىٰ فيهما بفطرة خَلقِهما[1].

٩- الأسرة في هذا المقام تقوم بدور تحديد «الهوية» أو «الوجود» لأعضائها، من حيث كونهم «حاملين رسالة إلهية» علىٰ الأرض مضمونها/ غايتها تحقيق العبادة لله وإعمار الكون وهداية الإنسان.

١٠- تظهر -أيضًا- فكرة «الرعاية» كمفهوم مركزي للوظائف التي ينبغي أن تقوم بها الأسرة تجاه أعضائها، ومبدأ «الرعاية» مفهوم غير محدَّدٍ في الزمان أو المكان أو الفعل، بل مفهوم ممتد يتسع لكل/كافة متطلبات الحياة: العقدية والاجتماعية والثقافية، وفي كافة أزمان الأسرة ومراحلها، فالرعاية مفهوم شامل يتضمن احتياجات الإنسان الأساسية والطارئة والمتغيرة، الآنية والممتدة.

١١- يرتبط مبدأ «الرعاية» بدوره بمبدأ آخر هو «الوظيفية - العضوية» الصالحة لأفراد الأسرة جذورًا وفروعًا، ويرتكز هذا المبدأ علىٰ عدة أسس هي:

أ- الترابط: فالأسرة كيان مترابط المراحل والتكوين، مثل الكائن الحي، الذي يكون في حالة نمو/ حركة دائمة.

ب- التكامل بين الفرد والجماعة (الأسرة): فالنظرة الوظيفية - العضوية للأسرة تقوم -أيضًا- علىٰ أنه لا حياة للجزء فيها (الفرد) خارج الكل (الأسرة)، والكل العضوي (الأسرة) أكبر من مجموع أجزائه، وأن هذا الكل

---

(١) المرجع السابق، ص: ٢٩٢.

العضوي (الأسرة) هو الذي يتاح فيه للأجزاء (الأفراد) المناخ السوي الذي يهيئ حالة النمو الراشد النافع.

ج- الصالحية الاجتماعية: يتولد أيضًا عن هذه النظرة الوظيفية - العضوية للأسرة فكرة صالحية المنتج الإنساني الناتج عنها، أي الإنسان الاجتماعي الصالح لحركة وتطوُّر ونموذج المجتمع والقادر علىٰ الفعل/التفاعل/التعاون الإيجابي داخل المجتمع الأكبر.

د- مجتمع البنيان المرصوص: تدعم هذه النظرة الوظيفية للأسرة فكرة مجتمع البنيان المرصوص الذي يشد بعضه بعضًا.

هـ- يطرح المنظور القرآني -في ضوء هذه الوظيفية- نَظرَتَه لشكل الأسرة الذي يراه من الامتداد والاتساع ليشمل حالةً اجتماعيةً أَوسَع من المفاهيم الوضعية الضيقة التي تَطرَح المفهوم مقتصِرًا علىٰ شخصين (الزوج والزوجة) والأبناء.. فيَطرح مفهوم (الأخ) و(الأخت)، (العم) و(العمة)، (الجد) و(الجدة)، و(الخال) و(الخالة)، في إشارة إلىٰ أن الأسرة هي نواة لتكوين (شبكة اجتماعية) مترامية الأطراف في المجتمع، البداية واحدة «**وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ**»[1]، والمؤمنون إخوة ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحُجُرَاتِ: ١٠].

١٢- من الوظائف الأساسية التي تقوم بها الأسرة -في المنظور القرآني- تنمية القابليات الفطرية لدىٰ الإنسان، وتهيئة أفرادها لتحقيق وظيفة «العبودية» في الأرض في كافة معانيها الظاهرة والباطنة، ومن هذه القابليات الدفع إلىٰ تكوين الأسرة والحفز علىٰ الزواج «أيها الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج» الحديث.. والأسرة في ذلك تقوم بدور التهيئة للأبناء علىٰ ممارسة هذا الدور من خلال القدوة الصالحة والنموذج الصالح الذي يُقدَّم فيها.

(١) أخرجه أبو داود، باب: التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، والترمذي، باب: في فضل الشام واليمن (٣٩٥٦) واللفظ له، وأحمد، باب: مسند أبي هريرة (٨٧٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٣٩٥٦).

١٣- الرابطة الأسرية التي يؤكد عليها المنظور القرآني ليست تلك الرابطة البيولوجية أو رابطة الدم والقرابة -رغم الاعتداد الكامل بهذه الجوانب- إلا أنها ليست هي التي تمثل نواة بناء الأسرة وتَمَركُزِها والتحكم في نشاطها وحركتِها، ويؤكد هذا المنظور علىٰ رابطة «الميثاق الغليظ» و«الولاية» بين أفراد الأسرة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ﴾ [التوبة: ٧١]، ومِن ثَم تأتي الارتباطات البيولوجية والفسيولوجية تابعةً لهذين الرابطين «الميثاق» و«الولاية».

١٤- الحقوق والواجبات من المبادئ المؤسِّسة في بناء الأسرة وتكوينها، ويقوم هذا المبدأ علىٰ مقولة تأسيسية لها بُعدُها الاجتماعي؛ وهي: "أن كل حق يجب أن يقابله واجب"، أما المثل الأعلىٰ فهو «الإحسان»، ومِن ثَم تنتفي فكرة «الصراع» و«التنافسية» ذات المخاطر بين أفراد الأسرة، وتحل محلها ميدانية «التكامل» «والوظيفية» و«الإيثار» و«التضحية»، فمبدأ/حق «القوامة» -علىٰ سبيل المثال- يقابله واجب الرعاية والمسؤولية المادية والاجتماعية عن كل شأن الأسرة، وهكذا حقوق الزوجة والأبناء، هذه الحقوق والواجبات التي لا تتصل بعالم الشهود فقط؛ بل تمتد إلىٰ عالم الغيب أيضًا (مثل بر الوالدين بعد مماتهما)، وهذا يعني تَمركُز فكرة «الإحسان» في مبدأ «الحقوق والواجبات» بين أعضاء الأسرة (سواء من أعلىٰ إلىٰ أسفل أو من أسفل إلىٰ أعلىٰ).

١٥- تبدو العلاقة تواصلية بين الأسرة من ناحية والمجتمع/الأمة من ناحية أخرىٰ، فالأسرة هي المؤسسة الاجتماعية النهائية والوحيدة المعززة بالفرد من جانب وبالأمة العالمية من الجانب الآخر، وأهميتها في النظام الكوني مؤكَّدة بنص القرآن: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١].

١٦- الإسلام لا يرىٰ في الإشباع الجنسي بين الزوجين أساسًا كافيًا لأنْ يحقق بمفرده الهدف من بناء الأسرة؛ بل يرىٰ أن الزواج القائم علىٰ البعد

الجنسي والحب الرومانسي العارض زواجًا قاصرًا وبعيدًا عن الكمال، فالزواج ينشئ شبكةً واسعةً من العلاقات الإنسانية، يدور عليها جزء كبير من الفعل الأخلاقي، وعائل الأسرة هو المسؤول الأول تجاه أفراد أسرته عن واجبات الإنجاب، والحب، والتراحم، والشورىٰ، والتوجيه، والتربية، والتعاون، والمودة[1]، كما يحتل (أولو القربىٰ) مكانةً رفيعةً في الأوامر الربانية المتعلقة بالبعد الاجتماعي والواردة في القرآن الكريم: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ﴾ [النِّسَاءِ: ١].

١٧- يرجح المنظور القرآني نمط الأسرة الممتدة التي تشمل: الآباء والجدود وأزواجهم وذريتهم، ومن أهم خصائص هذا النمط من الناحية الاجتماعية عدم وجود فجوة بين الأجيال؛ إذ إن هذه الأسرة تجمع بين ثلاثة أجيال، الأمر الذي يجعل تنشئة الصغار وانتقال الثقافة بين الأجيال كاملًا علىٰ الدوام، علىٰ نحو يكفل انتقال الأعراف والثقافة بأدنىٰ درجة ممكنة من الانحراف، وفي ظلها يتصل الماضي بالحاضر والمستقبل علىٰ نحو أصيل، كما تفرض الأسرة الممتدة الانضباط والتضحية المتبادلة علىٰ أفرادها، وقد يحد هذا من خصوصياتهم الشخصية، ولكنه يتماشىٰ مع طبيعة الحياة في هذه الدنيا التي لا تسمح لأي إنسان بالعيش كما يحلو له دون ضوابط ولا تضحيات وكأنه الوحيد في العالم، أو أن العالم خُلِق من أجله فقط، ومن الأفضل للإنسان أن يتمترس علىٰ الانضباط الذاتي، وأن يتحلىٰ بالإيثار والتضحية من أجل الآخرين، ومن الأفضل أن نتعلم ذلك علىٰ أيدي أحبة لنا في بيوتنا وليس علىٰ أيدي غرباء.

١٨- يؤكد المنظور القرآني في طبيعة العلاقات الزوجية علىٰ مركزية (حسن العشرة) بين الزوجين باعتبارهما عماد استقرار الأسرة، والسبيل إلىٰ

(١) إسماعيل الفاروقي: **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ص٢٨٦.

ذلك حُسنُ المعاملة الَّتي نَصَّ عليها قول الله تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾ [النِّسَاءِ: ١٩]، ومضمون هذه العشرة بالمعروف: احترام المشاعر، والتعاون علىٰ تحقيق الأُلْفة والمودَّة في البيت.

ويرتبط مفهوم حُسْن العشرة في العلاقات القائمة بمبدئية المعروف «بالمعروف» الذي يَبلغ مرتبة الإحسان في هذه العلاقة القائمة، وحتىٰ حال إنهاء العلاقة التي يراها هذا المنظور «أبغض الحلال» فإنه ينبغي أيضًا أن يلتزم هذا المبدأ ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ [الطَّلَاقِ: ٢].

١٩- كما أن الإحسان والمعروف مطلوبان في العلاقات الاجتماعية القائمة في الأسرة، فإنهما كذلك -بحسب المنظور القرآني- لابد وأن يكونا قائمين حال إنهاء هذه العلاقات من الوجهة الشرعية، بل إنه ذكر الإحسان في الفراق في مقابل المعروف في الاستمرار، والإحسان أعلىٰ مرتبةً من المعروف ﴿فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٢٩]. ويُحذِّر من الإمساك لغاية الضرر ويعتبره استهزاءً بآيات الله ومقدَّساته أي ميثاقه: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُواْۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ [البَقَرَةِ: ٢٣١].

٢٠- حرص المنظور القرآني علىٰ مراعاة الفطرة الإنسانية في ناحية تشريع الزواج وبناء الأسرة من ناحية، وكذلك حرص علىٰ استدامتها، وحذر مما يمكن أن يغير من مسارها ونجاحها، فأقر التعدد -حلًّا لمشاكل نفسية واجتماعية وربما اقتصادية- ولكنه اشترط تحقيق العدالة من الزوج، وإلا فإن الإسلام لا يرضىٰ الظلم علىٰ إطلاقه، وظُلم أحد أفراد الأسرة بصفة خاصة هنا ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النِّسَاءِ: ٣].

٢١- إن ممَّا لا شكَّ فيه ولا ريب أن الوضع الفطري الطبيعي بالنسبة للرجل أن تكون له زوجة واحدة، يختارها لتكون شريكة حياته، يتبادلان

عواطف المحبَّة والوئام، ويتعاونان علىٰ إنشاء أسرة متماسكة قوية البنيان؛ لإنجاب النسل الصالح الَّذي يرفد المجتمع بأفراد صالحين.

لكن هناك حاجات اجتماعية تَجعل من التعدُّد مصلحةً اجتماعيةً ودينيةً، وذلك عند قلَّة الرجال وكثرة النساء، سواء في الأحوال العادية كما هو الحال في بلاد شمال أوروبا، أم في حالات الحروب والأوبئة، كما وقع في بلاد أوروبا فيما بين الحربين العالميتين الأولىٰ والثانية، حيث بلَغَت نسبة الرجال إلىٰ النساء واحد إلىٰ أربع في بعض البلدان، وواحد إلىٰ ستٍّ في بعض البلدان الأخرىٰ، ففي مثل هذه الحالات يكون التعدُّد واجبًا اجتماعيًّا ووطنيًّا وأخلاقيًّا وإنسانيًّا في آنٍ واحدٍ، حيث تُصان به النساء عن التبذُّل، فيأوين إلىٰ بيت الزوجية، حيث يجدن الحماية والنفقة، وتصان الأخلاق من الانحلال والفساد.

لقد رأت أوروبا النتائج السيئة لمنع التعدُّد فأخَذَت تفكر بإباحة التعدُّد المشروع، لكنَّهم -مع بالغ الأسف- لم يفعلوا بَعْدُ، وبقي الباب مفتوحًا للتعدد غير المشروع. ويبقىٰ العدل هو الشرط الجوهري للتعدُّد، فلا يجوز للرجل أن يفرِّق بين نسائه في النفقة، أو المعاملة، أو حتَّىٰ في بشاشة الوجه وحلاوة اللسان، فإذا فُقِدَت القدرة علىٰ العدل انعدم حقُّ الرجل في التعدُّد[1].

٢٢- طرح المنظور القرآني بعض الآليات لحل النزعات الزوجية لتجنب الشقاق وانفكاك الأسرة. منها: الموعظة بين الزوجين والاعتزال، ثم التحكيم بين الزوجين ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٥]، وهي حالاتٌ من التدرج لحل الخلافات التي قد تَنشأ بحكم الطبيعة البشرية، أو العوامل الاجتماعية في الأسرة أو خارجها، أو العوامل البيئية، والإسلام

(١) غازي صبحي آق بيق: القرآن منهاج حياة، (٢/ ١٧١).

حريصٌ علىٰ استمرار الأسرة وأداء دورها بنجاح باعتبارها مؤشِّرَ صحةِ المجتمع كله وسلامتِه.

إن المجتمعات -كما تحتاج إلىٰ تجديد وسائلها الحياتية- فإنها كذلك تحتاج إلىٰ تجديد مفاهيمها في القضايا والموضوعات الأساسية التي تتصل بوجودها وكينونتها وهويتها، وموضوع الأسرة من أخطر الموضوعات التي ينبغي أن تُطرَح علىٰ مائدة الدراسات الاستقرائية المعاصرة؛ نظرًا لما يعتري المجتمعَ الإسلاميَّ من تهديداتٍ وجوديةٍ متعددة الجبهات لا حماية لها إلا بهذا الدرع الحصين، أي الأسرة، وبالبحث الأصيل في سُبُلِ المحافظة عليه.

هذا والله تعالىٰ أعلىٰ وأعلم

كتبه الفقير إلىٰ ربه والمفتقر إلىٰ رحمته ومغفرته

حسان بن عبد الله بن حسان

بطا - بنها - القليوبية

غرة شعبان ١٤٤٢ - مارس ٢٠٢١